الفصل الرابع

ابن المقفع أديباً

obeikandl.com

سئل ابن المقفع: (ما البلاغة؟)

فقال: اسم تجري في وجوه كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة؛ ومنها ما يكون شعراً؛ ومنها ما يكون سجعاً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون جواباً؛ ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج؛ ومنها ما يكون خطباً؛ ومنها ما يكون رسائل؛ فعامة هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة).[138]

ومن هنا نستكمل الحديث عن وجوه البلاغة في أساليبه الفنية الشكلية.

الوضوح والسهولة:

اللغة هي الأصل الذي يقوم عليه أي عمل فكري أو نقدي أو أدبي، وأساليب استعمالها في الوظائف والدلائل والأهداف هي التي تبرز مزية لهذا المبدع أو ذاك، والكلام(يحسن بسلاسته، وسهولته، ونصاعته، وتخير لفظه؛ وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه....)[139]

ولعل أهم سمة فنية تطالعنا في نثر ابن المقفع هي السهولة والوضوح؛ فهي لا تقع لديه في المقام الأول فحسب، بل تدل على سمة حضارية ثقافية تمثل عصره، في الوقت الذي تمثل مفهوم البلاغة لديه؛ كما في قوله: (إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة؛ فإن ذلك هو العيُّ الأكبر)[140].

---

[138] نقل ابن رشيق هذا الخبر في العمدة 243/1 عن البيان والتبيين 1/ 115- 116، ووقع فيه شيء من التغيير، انظر البيان.. والصناعتين 23 وزهر الآداب 145/1-146، وغيرهما ممن روى مفهوم ابن المقفع للبلاغة، وراجع حاشية 122 مما تقدم..

[139] انظر الصناعتين 69.

[140] أمالي المرتضى 137/1، وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قد سبق إلى مفهوم الإحكام في تلاحم أجزاء الكلام، ووضوحه من دون تعقيد، ولا تقديم ولا تأخير حينما حكم على شعر زهير بقوله: «كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتبع وَحشيّه»، طبقات فحول الشعراء 63/1، ثم أخذه ابن المقفع، وزاد عليه، ومن ثم تبعه من جاء بعده في الرأي مثل قدامة بن جعفر حين تحدث عن عيوب اللفظ في (نقد الشعر 172) وابن عبد ربه في العقد الفريد 189/4- 190، وأبي هلال العسكري في الصناعتين (159-160)، والحصري في زهر الآداب 162/1.

obeikandl.com

فالعي أدنى درجة من الحَصر؛ وقلة الحصر عند الإنسان تقابل مفهوم البلاغة عنده، كما في إجابته على سؤال من سأل: (ما البلاغة؛ قال : قلة الحصر، والجرأة على البشر؛ قيل له: فما العي؟ قال: الإطراق من غير فكرة؛ والتنحنح من غير علة)[141].

ولهذا شغف بكل لفظ رقيق شفاف وواضح بعيد عن العامية لا مرذول ولا ممجوج، على الرغم من أن خطابه النثري موجه –غالباً – للعامة، لكنه لم يسقط في حمأة الألفاظ الدارجة السوقية، ومن ثم ابتعد عن الألفاظ الغريبة، النادرة الاستعمال؛ والغامضة أو العويصة، فكان يتخير أحسن الألفاظ وأرقها لتقع من المعنى الموقع المناسب الجميل، وتلذ في أذن السامع، ثم يزداد ألقها بهاء في تأليف بديع مؤثر ودقيق في الدلالة، كما في حكمته الرائعة: (ذلل نفسك بالصبر على الجار السوء، والعشير السوء؛ والجليس السوء؛ فإن ذلك لا يكاد يخطئك)[142]، فحقق بذلك عناصر الجمالية الفنية بأجلى صورها.

فلو فتش أحدنا عن لفظ عويص أو نادر جافٍ لما وَجَدَ، ولهذا عمل بالنصيحة التي كان دائماً يوجهها إلى الآخر (عليك بما سهل من الألفاظ؛ مع التجنب لألفاظ السِّفلة)[143].

وكان يحيى بن زياد الحارثي قد كتب له يطلب منه الإخاء؛ فتلبث عليه، وكرر الكتابة، فأجابه إلى طلبه؛ ومن تقريظه ليحيى قوله: (وقد لزمتَ من الوفاء والكرم فيما بينك وبين الناس طريقة محمودةً، نسبت إلى مزيتها بالفضل، وجَمُل بها ثناؤك في الذكر؛ وشهد لك بها لسان الصدق، فعرفت بمناقبها؛ ووسمت بمحاسنها، فأسرع إليك الإخوان برغبتهم مستبقين يبتدرون ودك، فلو كنت لا تؤاخي من الإخوان إلاَّ من كافأ بودك، وبلغ من الغايات

---

141 العقد الفريد 4/ 189-190

142 أمالي المرتضى 1/ 136

143 أمالي المرتضى 137/1 وعنه أخذ قدامة سمات اللفظ الفصيح، انظر نقد الشعر 74، ومضمون حاشية 159 مما يأتي.

حَدَّك ما آخيت و لصرت من الإخوان صفراً، ولكن إخوانك يقرون لك بالفضل، وتقبل أنت ميسورهم من الود...)[144].

وكتب في تعزية رجل عن ابنته فقال: (لا ينقص اللّه عددك، ولا ينزع عنك نعمته التي ألبسك، وأحسن العِوَض لك؛ وجعل الخَلَف لك خيراً مما رزأك به؛ وما أعطاك خيراً مما قبض منك)[145].

هذا هو كل ما جاء في كتاب التعزية، وذاك جزء من رسالة مطولة له إلى يحيى؛ وهما أو غيرهما من كتابات ابن المقفع يؤكدان مقولته في بلاغة الكتابة؛ إذ يظن الجاهل أنه قادر عليها؛ حين سئل عن البلاغة فقيل له: (ما البلاغة؟ فقال: التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها)[146].

فهو يتخير أحسن الألفاظ للمعاني المركبة المنتخبة، ويتميز بالألفاظ العذبة والمخارج السهلة بديباجة كريمة تدل على عقل مثقف وطبع متمكن، بأساليبه دلت على فصاحة عالية من السبك الجيد، والكلام الذي يظهر عليه ماء الرونق[147] في الوقت الذي استطاعت أن تعبر فيه عن ثقافة عالية قديمة ومعاصرة. فالسهولة والوضوح بمثل هذه الخصائص إنما تمثل الفصاحة والبلاغة، لا الضّعف والركاكة اللذين ذهب إليهما الدكتور طه حسين، ونعت ابن المقفع بهما أحياناً[148]. فالفصاحة لا تكون في الألفاظ الكزة الغليظة الجاسية، أو المتوعرة المتقعرة، أو المكدودة المستكرهة؛ وإنما تكون بالكلام الجزل السهل الذي (لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ويكون بريئاً من الغثاثة، عارياً من الرثاثة)[149]، وبه تتركز قيم الجمال الفني.

فابن المقفع حرص على التراكيب البليغة الرقيقة التي تقع موقعاً طيباً ومثيراً

---

144 جمهرة رسائل العرب 62/3.
145 جمهرة رسائل العرب 56/3.
146 أمالي المرتضى 137/1.
147 انظر: البيان والتبيين 29/3 و24/4، وابن المقفع 127، ودراسات في الأدب المقارن 179.
148 انظر: من حديث الشعر والنثر (32- 33)، و(48 – 49)
149 الصناعتين 81.

obeikandl.com

وجذاباً عند المسامع، وتدخل إلى عقله بيسر وسهولة. وهذا ما ينطبق عليه مفهوم البلاغة نفسه باعتبار أنها (تخيّر اللفظ في حسن الإفهام) [150]. ولهذا لا يؤدي ما وقع في بعض أساليبه من اعتراض في الجملة، أو عودة بعض الضمائر على ألفاظ سابقة إلى اتهامه بالضّعف أو الغموض، وخروجه عن البلاغة[151].

فألفاظه في أساليبه اللغوية والبلاغية تبتعد عن كل ما هو مستكره، ومبهم، وغامض. حتى حينما لجأ إلى الإلغاز في كتابه المترجم (كليلة ودمنة) لم تكن ألفاظه مستغلقة المعاني، وإن كثر فيها الترميز والاستعارة، فضلاً عن أن الترجمة لم تجعله يهوي في ديباجته إلى منزلة الركاكة والرثاثة، والغموض والإبهام كما ذهب إليه بعضهم[152]. فأي مقطع من حكايته يتصف بالوضوح بما فيه أسماء الحيوانات التي غدت مألوفة، ومما جاء في حكاية الأسود من الحيّات وملك الضفادع قوله: (فرغب ملك الضفادع في ركوب الأسود؛ وظن أن ذلك فخر له وشرف ورفعة، فركبه واستطاب ذلك. فقال له الأسود: قد علمتَ أيها الملك أني محروم؛ فاجعل لي رزقاً أعيش به. قال ملك الضفادع: لعمري لابد لك من رزق يقوم بك إذ كنت مركبي. فأمر له بضفدعين يؤخذان في كل يوم ويُدْفَعان إليه. فعاش بذلك، ولم يضرَّهُ خضوعه للعدو الذليل بل انتفع بذلك وصار له رزقاً ومعيشة)[153].

فصرعة اللين والرفق أشد استئصالاً للخصم من صرعة المكابرة والعناد في وقت لا تزيد النار إذا وقعت في الشجرة إلاَّ احتراقاً، وما أشبه الليلة بالبارحة!!

وبهذا يصدق فيه ما قاله الجاحظ عن الكتاب: (ما رأيتُ قوماً أنفذ طريقة في الأدب من هؤلاء الكتاب فإنهم التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعراً وحشياً؛

---

[150] العمدة 1/ 247.
[151] انظر: ابن المقفع 129 – 135.
[152] انظر حاشية 152 ، مما تقدم، وابن المقفع (129 -130).
[153] كليلة ودمنة 113.

obeikandl.com

ولا ساقطاً سوقياً.)[154] فالألفاظ عنده احتفظت بجماليات التعبير الأدبي الراقي على سهولتها وكثرة تداولها، وقد ابتعد فيها عن أساليب الحذف والفصل والتعقيد والتقديم والتأخير... مما يجعل الكلام بعيداً عن أفهام الناس. وكان يرسلها عقله بعفوية وفطرية عالية من غير تكلف ولا تصنع، معتمداً في ذلك على الذوق المرهف الذي نمّاه بحذقه للغة العربية، وهذا ما نجده أيضاً في الدقة والتلاؤم.

الدقة والتلاؤم:

إذا كانت البلاغة تعني اللفظ الواضح السهل السمح البعيد عن التقعر والغموض، الواصل بشكل حَسَن إلى الأفهام كما انتهى إليه ابن المقفع تنظيراً وتطبيقاً في كتاباته كلها؛ حتى حذا حذوه كل من جاء بعده؛ فجعلوا البلاغة مرتبطة باللفظ إذا كان (سمحاً، سهل مخارج الحروف في مواضعها؛ عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة) [155] فإن التلاؤم والإئتلاف بين الألفاظ في النظم، وبينها في هذه الحال وبين معانيها؛ وإنزالها بدقة في مواضعها إنما هي الشكل الأرقى للبلاغة وروح الجمالية المتقنة.

وقد برزت قَصيدة ابن المقفع في استعمال الألفاظ الواضحة المتخيرة في ديباجة بديعة منتخبة عليها ماء الرونق وجودة السبك لتقع في مواضعها المناسبة من جهة وظيفتها ودلالاتها على معانيها التي تعبر عنها في الوقت الذي تطابق حال المتكلم والمخاطب، أياً كانت منزلته؛ خليفة أو والياً أو صديقاً، قريباً أو بعيداً...

فالبلاغة ليست ألفاظاً ولا معاني؛ وإنما هي ألفاظ تدل على معانٍ بِقَدَرٍ، وبصورة مثيرة جذابة وليست كما اتفق، وقد برز الذوق الحضاري المرهف عند

---

154 العقد الفريد 179/4.

155 نقد الشعر 74.

obeikandl.com

ابن المقفع عن حذق ومهارة في العربية لما اختزنه من أساليب دقيقة في التعبير عن المشاعر والأفكار بيسر ووضوح، فكان كلامه في الدرجة العليا من التلاؤم والدقة حين عرف أقدار المعاني وأحوال الخطاب، فقسم كلامه بدقة على تلك الأقدار والأحوال، وما كتاب (الأمان) أو (رسالة الصحابة) إلاَّ شكل فني دقيق يبين فيه ابن المقفع موافقته لحال السلطان وأفكاره، بينما رسالته إلى يحيى بن زياد التي أثبتنا منها مقطعاً قبل قليل تختلف كل الاختلاف عنهما، وكذلك تختلف جميعها عن وصيته لابنه؛ إذ يقول: (يا بني!! الصبر على كلمة تسمعها خير من ألف كلمة تطلب التخليص منها؛ فأكرم نفسك عما الخيرُ في غيره)[156].

فهذه الحكمة الرائعة تعبر بدقة متناهية عن معانيها، وتتلاءم في صورتها وطبيعتها مع حال المتكلم والمخاطب، وكذا نجد حاجته إلى الاقتصاد في اللفظ الدقيق في كتاب أرسل به إلى صديق له يعزيه عن ابنته؛ فقال: (جَدّد الله لك من هبته ما يكون خلفاً لك عما رزئته، وعِوضاً من المصيبة به؛ ورزقك من الثواب عليه أضعاف ما رزأك به منها، فما أقل كثير الدنيا، في قليل الآخرة)[157].

فالرسالة مقدودة على مقدار الحاجة في تخفيف لوعة الصديق، وتذكيره بأن عطاء الله على صبر من احتسب مصيبته عنده كبير وعظيم في الآخرة، ومن ثم هناك مشكلة معنوية دقيقة بين الألفاظ والمعاني تبعاً للموضوع وهو العزاء، وهي ألفاظ تغاير تماماً في الأسلوب ما رأيناه في نصيحته لابنه.

ومن ثم فهو يؤكد في تراكيبه، وكتاباته أنه يوجز ويطنب تبعاً لمقتضى الحال، ووفاء الموضوع حقه من المعالجة، بما يلائم كل جنس أدبي لهذا نشأت لديه الكتابة المتخصصة بالموضوعات الطويلة ذات الاتجاهات الفكرية

---

156 الفاضل في صبغة أدب الكامل 15/2.

157 جمهرة رسائل العرب 56/3-57.

obeikandl.com

الكبرى في التاريخ والسير، وفي الحكم والمواعظ؛ وفي الرسائل والعهود، أو في كليلة ودمنة، وربط بمهارة عالية بين العقل والجمال، وهو أحدث ما توصلت إليه النظرة الجمالية في عصرنا.

فقد ظهرت براعة ابن المقفع في أسلوب التلاؤم الدقيق بين الألفاظ والتراكيب وبين معانيها؛ من جهة؛ وبينها وبين مراعاة مقتضى الحال من جهة أخرى، مما جعل جمله جملاً موجزة قصيرة كما رأيناه فيما سبق؛ على حين قد تتدافع المعاني عليه وتزدحم في موضوع ما فيقف القلم ليتخيّرَ منها كل دقيق، إذ سئل عن هذا يوماً فقال: (إنَّ الكلام يزدحم في صدري، فيقف قلمي ليتخيَّر)[158]، فلا تطول الكتابة، أو يطول الموضوع إلاَّ عند الحاجة.

ولهذا يرى أحمد أمين أنه كان (غزير المعاني؛ إذا كتب ليست كتاباته جوفاء – ككثير من كتابات الناس – يمعن في اختيار المعنى؛ ثم يمعن في اختيار اللفظ له)[159] ثم يجري مجرى التذييل لتوليد المعاني على سبيل الاستشهاد على الأول والحجة على صحته.[160]

فعلمه الواسع وثقافته الغزيرة ودقة منهجه، كل ذلك ألزمه بمبدأ الدقة في الاختيار وإقامة التلاؤم في أساليب التصوير والتعبير عن المعاني، بحيث يأتي الموصوف بكل صفات الملاحة، ولا يكون تحته من المعاني ما يماثله أو يساويه كقوله في الطمع: (لا يطمعنّ ذو الكِبر في حسن الثناء، ولا الخِبُّ في كثرة الصديق، ولا السيئ الأدب في الشرف؛ ولا الشحيح في المحمدة، ولا الحريص في الإخوان، ولا المَلكُ المُعْجَب بثبات الملك)[161].

فكل لفظ موضوع في جملته بإيجاز مكثف شديد الإيحاء، دقيق الدلالة، فالناظر المتأمل في هذا النص الرائع يدرك أن الحكم البليغة التي اشتمل

---

158 زهر الآداب 154/1 وانظر ضحى الإسلام 198/1 وابن المقفع 27

159 ضحى الإسلام 198/1

160 انظر الصناعتين 470

161 الأدب الصغير 59

obeikandl.com

عليها؛ إنما جعلت في عقد بهي من النظم الدقيق دون تعقيد أو غموض؛ ومن دون تقديم أو تأخير، ومن ثم يأخذ التوازن في العبارات طريقه إلى النفس ليترك فيها جمالية مثيرة؛ وتأثيراً متصاعداً كلما مضى من عبارة إلى أخرى.

هذا ما عنى به الجاحظ رونق الكلام؛ في دقته وتلاؤمه مع معانيه، ومع التأثير الذي يتركه في المتلقي. فالمؤاخاة في الانساق التعبيرية؛ إذ كل نسق يسلم إلى الآخر بكثير من الائتلاف والتلاؤم من جهة النظم ومن جهة الإيحاء في المعاني، لتترك في المتلقي الاستجابة المثلى للإقلاع عن كل ما ينهى عنه ابن المقفع من رذائل مستقبحة في المجتمع.

وبهذا يؤكد ابن المقفع أن الدقة والتلاؤم في الأساليب النثرية ليستا مما يؤخذ من العرب بالتقليد، وإنما لكل شيء خَصائصه وطبيعته الفنية المبدعة إذا توافر لها مبدع متميز، فالذي يقع فيه التقليد الاستشهاد أو الاقتباس، وإن قدم هو الآخر بطريقة مبدعة كما سنراه عنده من بعد، وهذا ما قلناه فيه: إنه ارتقى ببعض الأساليب ورققها لتحسن في مواقعها دلالة ونظماً وإيقاعاً، ولا بأس علينا أن نشير إلى مثال آخر من كتاب (الأدب الكبير) في مخاطبة من يرغب أن يكون والياً فيقول: (وإياك؛ إذا كنت والياً؛ أن يكون من شأنك حُبُّ المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك، فتكون لُمة من الثُّلم يتقحَمون عليك منها، وباباً يفتتحونك منه؛ وغِيبةً يغتابونك بها ويضحكون منك لها)[162].

فهذا الكلام على غاية من الدقة والتلاؤم في إرسال الحكمة الرائعة التي تصلح لكل زمان ومكان، وإذا كانت قد صلحت لزمان ابن المقفع ، فهي أشد صلاحاً لحالنا، ومثله قوله: (يبقى الصالح من الرجال صالحاً حتى يصاحب فاسداً، فإذا صاحبه فسد، مثل مياه الأنهار تكون عذبة حين تخالط

[162] الأدب الكبير 73

obeikandl.com

ماء البحر فإذا خالطته ملحت)[163].

فالألفاظ المدبجة المتخيرة في تراكيبها، وأساليبها البلاغية لائقة بهذا المعنى المرتبط بالسلطان، وهو ما تنطبق عليه مفاهيم البلاغة في الجزالة والفخامة والسمو والرشاقة، من جهة الوضوح والسهولة أولاً؛ ومن جهة الدقة والتلاؤم ثانياً، ومن جهة التوازن والإيجاز ثالثاً، ولا علاقة بهذا كله إن كان المعنى قديماً أو مولداً، فالمعاني التي يطرقها ابن المقفع مستحدثة، ولكنها جاءت في صيغ يتعلق بعضها ببعض على مقتضى المعنى والحال، وهي تتسربل بثوب البهاء والجمال.

ولعلَّ الدقة والتلاؤم تبرز في حسن النسق وتلاحمه تلاحماً رائعاً وسليماً غير مستهجن ولا قبيح، فكل لفظ يردف بدقة متناهية في الجملة النثرية التي غدت كأنها البيت الواحد. وهذا ينطبق على كتاباته في كليلة ودمنة التي اتهمها الدكتور طه حسين بالضعف والركاكة؛ مما يحدونا في هذه السمة أن نستشهد بشاهد واحد لننتقل إلى سمة فنية أخرى في أساليبه، ونقتبس من حكاية «العلجوم والسرطان» هذا الشاهد؛ (فانطلق السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك. فأقبلن على العلجوم فاستشرنه، وقلن له: إنا أتيناك لتشير علينا؛ فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوه، وبقاؤك ببقائنا)[164].

سنترك الآن دلالة هذه الجملة الرائعة على موضوع الاستشارة وأبعادها من جهة قيمتها، والعمل بها لنتوقف عند الدقة المتناهية في استعمال أسلوب النسق بحرف العطف الفاء الدال على ترتيب وتعقيب في خطوات الحدث وتتابعه، فالترتيب في سياق الجمل المتفرعة عن الجملة الكبرى اقتضته البلاغة في الالتئام والاجتماع فيما بين الانساق وفق الحدث الذي يجري، وهي تتابُع في سهولة وعذوبة؛ على ما قيل في النصوص المترجمة؛ وعلى ما قيل في ابن المقفع

[163] كتاب الصناعتين 267.
[164] كليلة ودمنة 60.

obeikandl.com

من أنه ليس أكثر من مستشرق يفهم العربية، وهو الذي استشهد الفصحاء بأقواله كالجاحظ[165] الذي أخذ منه حكماً بليغة مثل: (الجود بالمجهود منتهى الجود)، و(الدَّين رِقٌّ فانظر عند من تضع نفسك).

ونختم كلامنا عن هذه السمة الفنية لنثر ابن المقفع من جهة الدقة العالية لديه في إيصال المعنى إلى السامع أن كلامه لا يحتاج إلى تأويل وتفسير، فالوضوح سمة للألفاظ، ومن ثم سمة للمعاني، ودقتها في أن كل لفظ يوضع في موضعه الملائم، ويبدو أن مفهوم الدقة والوضوح قد عِيب فيه ابن المقفع، وذهبوا إلى أنه يقدم معانيه بأساليب مباشرة – غالباً - وإننا لنرى في هذا المقام تأثير الحياة الحضارية والثقافة الفارسية في أساليبه العربية، وهو مما تجلى فيها... ولكن المباشرة لم تكن ممجوجة؛ ولا مستكرهة، وقد أنقذها من الابتذال والسطحية والضعَّف والدقة في اختيار الألفاظ والصور وتلاؤمها لكي تدل على معنى ما ولا شيء آخر، لكن هذا لم يكن دأبه دائماً كما سبقت الإشارة إليه وكما سيتضح لنا مما يأتي.

التوازن والترسل:

مامن أحد لم يعد يعرف أنَّ ابن المقفع قد عاش في زمن بدايات النثر الفني العربي، وهو زمن ورث أساليب بلاغية وفنية في الكتابة مما تقدمه من الأزمان، مثل الإزدواج والسجع والتوازن، والإرداف والترسل الذي بدأ على أيدي عبد الحميد الكاتب.

وكل من يتعقب أساليب ابن المقفع في هذا الاتجاه يلحظ بكل جلاء أنه قد عني ببعض منها وارتقى فيها عما جاء من قبل؛ بينما تراجعت أساليب أخرى حتى ظهرت باهتة في كتاباته، وما وقعت إلاَّ في مواطن تقتضيها البلاغة في

[165] البيان والتبيين 174/3، و367 على الترتيب، ونحوه في الرواية في عيون الأخبار 166/1 ، وفيه حكم أخرى.

obeikandl.com

المقام والمعنى، وهذا ما نراه في أسلوب الازدواج والسجع، فمن يتصفح كتاب (الأدب الصغير) وهو عبارة عن حكم رصفت بعناية فائقة في أدب الصداقة والسلطان يجد عدداً يسيراً من العبارات التي انتظمت في الازدواج والتوازن، بينما أغلبه جاء على أسلوب التوازن المؤلف من ثلاث كلمات فأكثر؛ مقترناً بأسلوب الترسل[166]. فما وقع فيه الازدواج قوله: (وعلى العاقل أن لا يكون راغباً إلاَّ في إحدى ثلاث: تزود لمَعادٍ، أو مَرَمَّةٍ لمعاش، أو لذةٍ في غير محرم)[167]. فالازدواج مجيء فاصلتين من النثر متواليتين في كلمة أو كلمتين من دون سجع. ويبدو لي أنه حاول أن يسوق هذا النسق اللغوي الدقيق في أسلوب آخر، يسمى أسلوب التقسيم، وكأني به يربطه بحنكة عالية بأسلوب الازدواج[168] مما صيّر الحُسن في التقسيم يضاهي الجمالية في الازدواج لديه، فوافق بذلك البلاغة البديعة، أما السجع فقد هرب من الفواصل المنتهية بحرف واحد في اللفظ إلى الصيغة الصرفية (لمعاد – لمعاشٍ) وفيهما وقع – أيضاً – التجنيس بالألفاظ[169] مما أضفى جمالية أخرى على الأسلوب، وإن لم يكن يقصد إليه، وهو نادر في أساليبه إلاَّ ما نورد على الفطرة، كقوله: (كلام اللبيب – وإن كان نزراً – أدب عظيم؛ ومقارنة المأثم – وإن كان محتقراً – مصيبة جليلة؛ ولقاء الإخوان – وإن كان يسيراً – غُنم حَسن).[170]

وأنا لن أقف عند الاعتراض الرائع في هذا الكلام المتقن – ويسميه بعض البلاغيين الحشو – فإنما جرى في هذا الأسلوب القائم على الازدواج مجرى التوكيد والشرح والإيضاح على تكراره؛ لأن التكرار جاء بمقتضى المعنى؛ وإلاَّ فسد، واختل[171]. ومن هنا دخل في باب الدقة؛ والوضوح والتلاؤم مع

---

166 انظر مثلاً: الأدب الصغير 40 و51 و62 والأدب الكبير 67

167 الأدب الصغير 27.

168 انظر مثلاً: الأدب الصغير 53 ، والأدب الكبير 77 و114.

169 انظر تحرير التحبير 102 وبعد، و452 والمثل السائر 368/1.

170 الأدب الصغير 34.

171 انظر: الأدب الصغير 58 والأدب الكبير 114 عن ظاهرة التكرار والازدواج.

obeikandl.com

أسلوب الازدواج، ولم يكن مجيئه عبثاً، فابن المقفع يقدم نصيحته إلى صديقه فيما يراه مفيداً له من الكلام البليغ الذكي الموجز الذي ارتفع عن الابتذال والسفه؛ ومن ثم يحرضه على لقاء الإخوان الذي يجعله غنيمة لكل لبيب، والازدواج كان قائماً على الابتداء في الكلام الاول معنى وتركيباً في نسق مترابط منسجم ينحدر كالماء الرقراق؛ في سياق مفهوم النثر المرسل غالباً.

وبناء على ذلك كله نرى أن الازدواج على شهرته في الخطابة والكتابة عند العرب في الجاهلية والإسلام قد تراجع عند ابن المقفع كثيراً؛ وما ورد في كتاباته لا يكاد يذكر، وكذلك هو السجع؛ فقد ندر في (الأدب الصغير والأدب الكبير) وغيرهما؛ إلاَّ ما وقع منه عفو الخاطر[172]، وإن كانت رسائله الصغيرة في التعزية والتهنئة والتحميد قد حظيت بشيء منه، ومما وقع منه في مطلع باب (الصداقة) قوله: (ابذل لصديقك دمك ومالك؛ ولمعرفتك رفدك ومحضرك؛ وللعامة بشرك وتحنُّنَك، ولعدوك عَدلك وإنصافك، واضنن بدينك وعرضك على كل أحد)[173]. ووقع السجع في رسالة كتبها يعزي عن ولد وهي (أعظم اللّه على المصيبة أجرك، وأحسن على جليل الرُّزءِ ثوابك؛ وعجَّل لك الخلف فيه؛ وذخر لك الثواب عليه)[174].

ولا يخالجنا شك في أن السجع كان نادراً بل عزيزاً في كتاباته ما عدا التحميدات التي وقع السجع فيها كثيراً، اقتداءً بأستاذه عبد الحميد الكاتب في التحميدات وغيرها.[175]

وأياً كان السجع الذي وقع عند ابن المقفع فإنما جاء عفو الخاطر كالإزدواج، ولم يكن متكلّفاً ولا متصنّعاً؛ فلم يقصد إليه ولم يعن به كما ذهب إليه

---

172 انظر مثلاً: الأدب الكبير 102.

173 الأدب الكبير 102.

174 جمهرة رسائل العرب 56/3 وانظر فيه 60 و61.

175 انظر مثلاً: جمهرة رسائل العرب 53/3 -54، تحميد لابن المقفع، ووازن بينه وبين تحميدات عبد الحميد الكاتب في الجمهرة نفسها 469/2 -472.

obeikandl.com

بعض الباحثين.[176]

ومن هنا نرى أنه عوض عن هذه الأساليب القديمة بأساليب جديدة ارتقى فيها بعيداً عما عرف في أواخر العهد الأموي، وهو أسلوب الترسل والقص الذي ساد في كتابه (كليلة ودمنة) وأسلوب الترسل والتوازن الذي ساد في (الأدب الصغير والكبير) وأسلوب الترسل الذي ساد في (رسالة الصحابة) و(اليتيمة) ورسالته إلى يحيى بن زياد، وقد ترابط أسلوب الترسل مع التقسيم تارة ومع التفريع والتكرير تارة أخرى على مبدأ تكثيف عددٍ من الأساليب في سياق واحد لتتضح جمالية الكتابة لديه. ويلحظ المرء أن الترسل والتوازن قد حقق للتراكيب جاذبية عالية في الإيقاع والإثارة؛ مما خلق استجابات عالية في النفس لمتابعة الفكرة التي يعرض لها، ثم استيفاء عناصرها الفنية والجمالية، ومن الأمثلة على هذا قوله: (لا ينفع العقل بغير وَرَع؛ ولا الحفظ بغير عقل؛ ولا شدة البطش بغير شدة القلب، ولا الجمال بغير حلاوة؛ ولا الحَسَب بغير أدب، ولا السرور بغير أمن؛ ولا الغِنى بغير جود، ولا المروءة بغير تواضع؛ ولا الخفض بغير كفاية، ولا الاجتهاد بغير توفيق)[177].

فالتراكيب قائمة على أسلوب الترسل المتوازن المعتدل الذي وَفَّرَ إيقاعاً مثيراً وجميلاً في جذب المتلقي، لكنه لم يكن عائقاً في الكلام، فالتوازن أغنى عن السجع والازدواج في آن معاً، وقام مقامهما في جماليتهما وأضاف للترسل قيمة فنية كبرى وهو يتتابع لاستيفاء المعانين لأن كل جملة تكاد تعادل أختها.

ولهذا قد يرتبط أسلوب الترسل والتوازن مع التفريع في الجمل والتقسيم، وهذا أسلوب أليق بالنثر منه بالشعر، وإن وقع في هذا فإذا كانت مفاصل الكلام متعادلة كانت جميلة وإذا تفرعت؛ وقسمت زاد استحسانها في

176 انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي 38-39.
177 الأدب الصغير 50.

obeikandl.com

النفس، ومن ثم تظهر الجملة الصغرى جزءاً من أختها، وهي تنتمي في اتصال وثيق إلى الجملة الكبرى. فالجمل شديدة التلاحم كل جملة تسلم إلى الأخرى كما نراه في قوله: (خمسة غير مغتبطين في خمسة أشياء يتندمون عليها؛ الواهن المفرط إذا فاته العمل؛ والمنقطع من إخوانه وصديقه إذا نابته النوائب، والمستمكن منه عدوه لسوء رأيه إذا تذكر عَجزه، والمفارق للزوجة الصالحة إذا ابتلي بالطالحة، والجري على الذنوب إذا حضره الموت)[178].

فابن المقفع حاول استقصاء المعاني الخمسة المطلوبة، فطفق يقسمها ليصل إلى إيضاحها واحداً إثر آخر منتقلاً من العام إلى الخاص على سبيل التفريع لا الاستطراد المعروف، الذي برع فيه الجاحظ من بعدُ.

ومن أحسن ما وقع في الترسل المتوازن المرتبط بالتقسيم والتفريع قوله: (اعلم أن الصبر صبران: صَبر المرء على ما يكره، وصبره عما يحب؛ والصبر على المكروه أكبرهما وأشبههما أن يكون صاحبه مضطراً. واعلم أن اللئام أصبر أجساداً وأن الكرام هم أصبر نفوساً)[179]. وقوله: «إن الحسد خُلق دنيء، ومن دناءته أنه موكّل بالأدنى فالأدنى».[180]

وقد يلحظ المرء أن هناك تكراراً في الألفاظ ولكنه تكرار مقصود لذاته على سبيل التفريع والتوكيد والتوضيح للفكرة الكبرى المطروحة في بداية التراكيب.

ولهذا كله يصبح التوازن مقارباً لأسلوب الموازنة وإن خلا أحياناً من الإيقاع[181] ومُشَاكِلاً لأسلوب المماثلة أكثر مما يشاكل المساواة؛ لأنَّ المساواة تعني أن يساوي اللفظ المعنى فلا يزيد عليه ولا ينقص، على حين أن المماثلة تعني التماثل في إيقاع الألفاظ المفردة وزنتها دون التقفية[182]، بينما التوازن يقع في

---

178 الأدب الصغير 50.
179 الأدب الكبير 114 وانظر فيه 77 و79 -80 و105 و 115 و 116.
180 بهجة المجالس 410/1.
181 انظر تحرير التحبير 197 (المساواة) و297 (المماثلة) و386 (الموازنة).
182 تحرير التحبير297.

obeikandi.com

التراكيب المتقاربة في العدد والحجم.

بجده)[183].

وإذا كان المرء يحرص على هذا المثال فلأنه يبين أن التقسيم هنا ومن ثم التفريع لا يشابه ما مر في النص السابق، فهو يترافق مع الترسل القائم على الجملة الطويلة؛ فضلاً عن انسجامه مع طريقة السرد الذاتي، بعد الحوار المعروف بين الشخصيات؛ وهو ما يدعى بالحوار الخارجي، علماً أن الازدواج قل ذكره في أسلوب كليلة ودمنة[184].

وليس هناك من شك في أن هذا النص مترجم عن نص آخر من أصل هندي؛ بيد أن شخصية ابن المقفع تظهر بقوة في النص المترجم من جهة أسلوب السرد القصصي المعتمد على الجملة الطويلة المعبرة بدقة عن المعنى المراد، مما يؤكد أن ابن المقفع أدخل إلى النثر حقولاً جديدة من المعارف، في الوقت الذي أدخل إلى الكتابة العربية حقل الترجمة ذاته فقد قدم بأسلوبه الطريف البديع الثقافة الهندية ومزجها بالثقافة العربية لتصبح ثقافة إنسانية. فقد نقل ذلك بأسلوب عربي فصيح استوفى تحليل الأبعاد الذاتية والنفسية والموضوعية للفكرة وفي آن معاً استوفى أسلوب التكثيف في الجمع بين أكثر من أسلوب بلاغي.

لهذا مزج بين أساليب العربية، وأساليب اللغة الفهلوية معاً في التعبير عما يريد؛ فاتجه إلى المباشرة في تناول معانيه من دون الوقوع في السطحية والابتذال والإسفاف والسوقية ومن دون الوقوع في الغرابة والتعقيد المنفر في اللفظ

[183] كليلة ودمنة 58-59.
[184] انظر مثلاً : كليلة ودمنة 131.

obeikandl.com

والجملة، فكان يسعى إلى إبراز معانيه بتراكيب واضحة ودقيقة الدلالة فلجأ إلى الجمل القصيرة المنتزعة من أساليب الفرس، وحين تخلى عن سعة الجملة العربية التي تعنى عناية فائقة بالإحاطة والشمول لعدد غير محدود من المعاني والأفكار؛ فإنه موج بين الجملة العربية والجملة اللغوية الفارسية، فقسم الجملة الطويلة إلى جمل قصيرة ذات معان محددة.

وبهذا تمَّ له التوفيق بين أساليب العربية وأساليب الفارسية، ومزجها مزجاً أدبياً حضارياً، فجاءت لغة الترسل وأسلوبها في ثوب جميل مثير يجتمع على حكم رائعة في مختلف الموضوعات التي عالجها.

بقي علينا أن نشير إلى فكرة أخيرة في مفهوم أسلوب الترسل كنمط في الكتابة النثرية وهي فكرة تتعلق بمنهج هذا الأسلوب، ونتساءل هل الأسلوب واحد أو متماثل؟!

والإجابة على هذا تكون في النفي، فهو لم يتبع منهجاً واحداً في كتاباته الترسلية؛ فمن الرسائل ما كتبت على أنها مذكرة فخلت من العناصر الأساسية للرسالة كما تعارف عليها الناس في كتابات العصر الأموي؛ كرسالة الصحابة واليتيمة؛ ومنها ما كتبت على أساس أبواب معرفية، يكتبها صاحبها لنفسه وإن كان المقصود منها أشخاصاً محدودين يتوجه بها إليهم؛ مثل باب (السلطان) في (الأدب الكبير)، ومثل (كليلة ودمنة)، ومنها ما كتبت رسالة موجهة إلى شخص بعينه، ومن ثم يرسلها إليه، ومنها ما تكون للتحميد والثناء على الله، وهذا فن ترسلي ابتدعه عبد الحميد الكاتب، له سماته الخاصة.

وحين نتابع هذين النمطين نجد أن ابن المقفع تخلى عن عناصر الرسالة المنهجية التي عرفت في صدر الإسلام والعهد الأموي، فلم نجد لديه البسملة والعنوان والتحية والتحميد والصلاة في جميع كتاباته، فهناك قسم أول يشتمل على

عبارة التخلص مثل (أما بعد) و(المضمون)[185] وقسم ثانٍ تخفف من عبارة التخلص، ولم يبق إلاَّ المتن ككتاب له بعث به إلى صديق له بمناسبة رزقه بمولودة، فقال: (بارك الله لكم في الابنة المستفادة، وجعلها لكم زيناً، وأجرى لكم بها خيراً، فلا تكرَهها؛ فإنهن الأمهات والأخوات والعمات والخالات؛ ومنهن الباقيات الصالحات، ورب الغلام ساء أهله بعد مسرتهم؛ وربَّ جارية فرَّحت أهلها بعد مساءتهم)[186] وقسم ثالث فيه عبارة التخلص وتحية الختام[187].

فسنترك دلالة هذه الرسالة الموجزة القصيرة ذات العبارات الرقراقة المنسابة انسياب الماء الهادئ، وسنترك دلالتها على صحة إيمانه، وابتعاده عن المانوية التي ترى المرأة مصدر شر، فيزهد المانوي في النساء والخمر، ولكننا لن نترك عناصر الترسل التي قامت عليها، إنه لا يوجد منها إلاَّ (المضمون) وكاف الخطاب الذي يدل على المرسل إليه وإن لم يعرف، ويظل للتحميد طبيعة خاصة، سنتحدث عنه مستقلاً فيما يأتي:

التحميد والإرداف:

اقترن التحميد في الرسائل بعنصر التوحيد في مقدمة كل رسالة؛ بحيث يعبر الكاتب عن شكره لله سبحانه ويثني عليه، ثم يتابع كتابة عناصر الرسالة؛ كما في رسالة (الحسين(ع)) إلى أهل الكوفة: «بسم الله الرحمن الرحيم؛ من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم؛ فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاَّ هو. أما بعد؛ فإن كتاب مسلم بن عقيل

185 انظر جمهرة رسائل العرب 54/3 كتاب رقم 57/30 رقم 38 و58 رقم 39 و59 رقم 41 و61.
186 انظر جمهرة رسائل العرب 55/3 وانظر فيه كتاب رقم 31 و56 رقم 33 و34 و35 و36 و 57 رقم 37 و58 رقم 40 و60 رقم 44.
187 انظر مثلاً جمهرة رسائل العرب 60/3 كتاب رقم 43 و 61 رقم 46.

obeikandl.com

جاءني....»[188] فلما جاء عبد الحميد بن يحيى الكاتب، أخذ يبدأ بعبارة التخلص في رسائله، وقلده في ذلك ابن المقفع؛ ثم جعل.

(الرجاء العودة إلى الأصل ص 256 – 257) وضعت أرقام هذه الحواشي كي أتدارك الخطأ في الترقيم وربما تكون حواشي محذوفة.

191 190 189

التحميد أشبه برسالة يقوم على موضوع بعينه، كأن يثني على الله تعالى حامداً إياه على فتح جديد أمام الإسلام في بلد من البلدان[192]؛ أو أن يخصصه لتعظيم نبي الأمة(ص)[193]؛ أو يثني عليه شكراً وعرفاناً[194].

وبهذا اتخذت التحميدات لنفسها موضوعات خاصة؛ في الوقت الذي اتخذت أيضاً أساليب محددة غلبت عليها كالإزدواج والاتزان؛ والسجع، والتكرار؛ والاقتباس من القرآن مع التضمين؛ والإرداف، أو التتبيع، والتحميد والثناء على الله وتوحيده، وشكره كان مقتصراً على (فصل الخطاب) بعبارة قصيرة كما رأيناه في كتاب الحسين(ع)؛ بينما غدا طويلاً يبلغ صفحات أحياناً يستقصي فيه الكاتب أغلب معاني الثناء والشكر على الله.

واقتفى ابن المقفع أثر أستاذه فكتب هذا النمط الفني المبتكر؛ لا ليمارس فيه روح الإعجاب والتقليد، ولكن ليقول: إنه على منهج أستاذه في الكتابة والإيمان بالله... فالتحميدات تحمل من النفحات الروحية الإيمانية، ما لا يوجد في أي كتابة أخرى؛ وكأنها تشبه قصائد المدح النبوي، فحين يمن الله على الإنسان بالإيمان، لابد له من أن يحمده ويجدَّ في شكره على هذه النعمة الكبرى، مما يصل به إلى راحة نفسية عظيمة في نهاية المطاف، ومن هنا نجد

---

188 انظر جمهرة رسائل العرب 80/2.

189

190

191

192 انظر مثلاً جمهرة رسائل العرب 470/2.

193 انظر مثلاً جمهرة رسائل العرب 470/2 471.

194 انظر مثلاً جمهرة رسائل العرب 469/2- 471.

obeikandi.com

العاطفة المتأججة التي تسيطر على الكاتب مما يجعله يكرر كثيراً في صيغة أو إيقاعاته، أو أفكاره، ويضمن معاني القرآن أو يقتبسه بلفظه ومعناه، ولو لم تكن هذه النفحات الإيمانية تغمر روح ابن المقفع لما كتب مثل هذا النمط من التحميدات وتخلى عنه دون أن يعيبه إنسان ما... وبهذا يمكننا أن نثبت جزءاً من التحميدات التي قالها خالصة لتعظيم الله، وإعزازه لدين الإسلام: «الحمد لله ذي العظمة القاهرة، والآلاء الظاهرة؛ الذي لا يعجزه شيء، ولا يمتنع منه، ولا يُدفع قضاؤه ولا أمره؛ (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون) (يس 36 -82). والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه؛ ودبّر الأمور بحكمه، وأنفذ فيما اختار واصطفى عزمه؛ وبقدرة منه عليها، وملكة منه لها (لا معقب لحكمه) (الرعد 14/13) ولا شريك له في الأمور، (يخلق ما يشاء ويختار) (القصص 68/28). ما كان للناس الخيرة في شيء من أمورهم) (سبحانه وتعالى عما يشركون) (القصص 68/28). بل إن كلمة ما كان للناس الخِيَرة، مأخوذة من الآية نفسها مع تبديل كلمة واحدة ونص الجملة في الآية السابقة من سورة القصص (ما كان لهم الخِيَرة، سبحان الله وتعالى عما يشركون)».

ثم يتابع قوله: «والحمد لله الذي جعل صَفوة ما اختار من الأمور دينه الذي ارتضى لنفسه، ولمن أراد كرامته من عباده، فقام به ملائكته المقربون، يعظّمون جلاله؛ ويقدسون أسماءه، ويذكرون آلاءه؛ لا يستحسرون عن عبادته ولا يستكبرون»[195] والعبارة الأخيرة نص آية وقع فيه تقديم وتأخير، ونصها (لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) (الأنبياء 19/21).

ونكتفي بهذا القسم من التحميد المطول عنده، وفيه ظهرت أصول التحميد التي أرساها أستاذه في هذا النمط من الكتابة الفنية النثرية؛ وفيها أظهر مهارة عجيبة في اقتباس آيات من القرآن، وتضمين آياتٍ أخرى في معانيها تلميحاً وإشارة، في الوقت الذي اعتمد على الإزدواج المسجوع في فواصله

[195] جمهرة رسائل العرب 3 /53.

obeikandl.com

النثرية، وعلى التكرار المثير والمعبر ولاسيما في عبارات الحمد والتوحيد.

وأياً كان أ مر هذا التحميد في دلالته المعنوية والإيمانية والأسلوبية فإننا نستخلص منه أمراً آخر؛ هو أن الكتابة النثرية الفنية في العهد العباسي قد أخذت قواعد معينة في العديد من أصناف الكتابة، معتمدة أحياناً على الموروث من الثقافة الفارسية، وأحياناً على الموروث من الثقافة العربية وفي هذا النمط من التحميدات كان يعتمد الموروث من الثقافة العربية، ويجعله مصدره الأساسي لكتابته وبخاصة القرآن الكريم، وقد استطاع أن يستمد منه أبعاداً فنية وفكرية هيأت له تلك المهارة في صناعة أسلوب التحميد، ولم يكن هذا الأسلوب منه لأن هذا ا لأسلوب يحتل من نفوس المسلمين مكانة أثيرة، لذلك اعتمده في هذا النّص كما زعمه براون[196].

ولو كان الأمر على ما ذهب إليه براون لاستكثر منه ابن المقفع، ولكنه كان يتفق مع صحة إيمانه، والتعبير عنه، وهو القائل: «ومن أخذ بحظه من شكر اللّه وحمده ومعرفة نعمه والثناء عليه والتحميد له فقد استوجب بذلك من أدائه إلى اللّه القُربة عنده، والوسيلة إليه، والمزيد فيما شكره عليه من خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة»[197].

لعلنا بذلك قد أوضحنا سمة أسلوب التحميد في بعض كتاباته، التي استندت فيما استندت إليه إلى الإرداف أو الترادف أو التتبيع، فقد يريد المتكلم معنى يعبر عنه بلفظ ما حتى يستوفيه ثم يردفه (يتبعه) بلفظ آخر قريب من الردف وينوب عنه[198].

وهذه الظاهرة الأسلوبية تزيد المعنى وضوحاً وجلاء؛ على أن لا يكثر منها الكاتب. وحين نقرأ النص السابق في التحميد عند ابن المقفع نجد أن الإرداف متتابع في أسلوبه وإن لم يكن في بقية كتاباته بهذه الكثرة، وهو أحد

196 انظر تاريخ الأدب في إيران 94، 103، 104.
197 الأدب الصغير 37.
198 انظر العمدة 313/1 وتحرير التحبير 307.

obeikandl.com

الأساليب القرآنية المعجزة. ولنأخذ المقطع قبل الأخير من تحميده وفيه يقول: «والحمد لله الفتاح العليم، العزيز الحكيم؛ ذي المَنّ والطَّول؛ والقدرة والحَول؛ الذي لا ممسك لما فتح لأوليائه من رحمته؛ ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نقمته، ولا راد لأمره في ذلك وقضائه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد»[199] فلو تأمل أحدنا هذا النص لوجد أن الإرداف يشيع فيه (ذي المن والطول) مع (القدرة والحول) و(لا دافع لما...) مع (ولا راد لأمره...) و(يفعل ما يشاء) و(يحكم ما يريد). فكل جملة تقارب أختها في المعنى، وهو معنى قائم على التوكيد والإيضاح.

وهكذا اتضح لنا أن أسلوب التحميد جمع العديد من أساليب البلاغة العربية؛ وفي طليعتها أسلوب الإرداف الذي عرف في الشعر العربي، والقرآن الكريم كما مثل له ابن رشيق وابن أبي الإصبع[200] فابن المقفع يعتمد على تكثيف عدد من الأساليب في سياق فني واحد كما انتهينا إليه.

ومن هنا نتساءل إذا كانت أساليب الإرداف والازدواج والتضمين والاقتباس والتكرار قد اجتمعت معاً في التحميد فهل نجد هذا التكثيف عاماً في كتاباته...؟!

والإجابة : لا... فالإرداف مثلاً. ومثله الإزدواج قلَّ أن وقع في كتاباته الأخرى بما فيها الرسائل، ويمكن أن نقع عليهما معاً في رسائله، لكن على ندرة كما في قوله: «ويقوّم أَوَدَهم؛ ويلزمهم مراشد أمورهم»، وقوله: «هم بَهاء فنائه؛ وزينة مجلسه»[201].

وكذلك رأينا الإرداف في رسالة له يصف فيها أحد إخوانه؛ ومنها: «إنّي مخبرك عن صاحب لي كان أعظم الناس في عيني؛ وكان رأس ما عظّمه في عيني صغر الدنيا في عينه؛ كان خارجاً من سلطان بطنه؛ فلا يتشهّى ما لا

---

199 جمهرة رسائل العرب 54/3

200 راجع الحاشية 199.

201 جمهرة أشعار العرب 51/3 وانظر فيه 42.

obeikandl.com

يجد؛ ولا يكثر إذا وجد. وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا يدعو إليه ريبة...»[202] ومما وقع من الإرداف في الأدب الكبير قوله: «وإما عبث بالقول؛ وإرسال للسان على غير روية ولا حسن تقدير، ولا تعويد له قول السداد والتثبت»[203].

أما في كليلة ودمنة فهو نادر جداً، على الرغم من أن هذا الأسلوب ينسجم تماماً مع أسلوب القص لأنه يفيد الشرح والتوضيح في صفات الكلام المتماثل معنى المترادف لفظاً، كما في قوله: «ومن لا يقدّر لطاقته طعامه وشرابه، وحمّل نفسه ما لا تطيق. ولا تحمل. فقد قتل نفسه. ومن لم يقدّر لُقْمَتَهُ، وعظَّمَها فوق ما يسع فوه غص بها فمات»[204]

وأخيراً نؤكد أن هناك أسلوباً أساسياً يجعله ابن المقفع كالأصل ثم يعضده بأساليب أخرى تعززه وتوضحه، ولكن هذا لا يعني أنه يستخدم تكثيف الأساليب بشكل مطرد، بل أحياناً يطغى أسلوب أو أكثر على بعض كتاباته ويصبح شائعاً فيها كالإطناب في حجم الرسائل وحجم الجملة الذي جاء على حساب الإيجاز في كثير من الأحيان عنده، وإن كان ممن يعتمد الإيجاز فهو يرى السكوت والاستماع بلاغة لأنه يرغب في قلة الكلام إذا أفاد لكن إذا كان لابدَّ من الإطناب فعلى الكاتب أن يأخذه به.

وهذا كله على تمرس بالعربية وحذق فيها لا يقل عن حذقه بالفارسية؛ مما جعل عباراته قوية متماسكة؛ إذ كل معنى يُفضي إلى المعنى الآخر بيسر ودقة، وكأن عباراته سلسلة مترابطة يأخذ بعضها برقاب بعض وهذا ما نراه في استعماله لأسلوب الإيجاز والإطناب على السواء.

---

202 جمهرة أشعار العرب 54/3.
203 الأدب الكبير 80.
204 كليلة ودمنة 126-127.

obeikandl.com

الإيجاز والإطناب:

ما ذكر الإيجاز إلاَّ تذكر الإنسان الإطناب، وكذلك المساواة التي أدخلها الرماني في الإيجاز... فحين يساوي اللفظ معناه يكون إيجازاً؛ لأن الإيجاز استيفاء الغرض من العبارة بأقل الألفاظ المعبرة. وهو يختلف عن أسلوبي التلميح والإشارة... اللذين يعدان كاللمحة الدالة على معانٍ كثيرة... بينما الإيجاز يقوم على حذف بعض الألفاظ، ويسمى إيجاز الحذف؛ دون أن يخل بالمعنى؛ لأن السياق يدل عليه؛ وهو ما أكثر منه الشعراء... أو يكون عدولاً عن ألفاظ إلى ألفاظ أقل تحمل المعاني ذاتها، فتأتي موجزة[205].

فالعناية بالمعاني في هذا الأسلوب لا يكون على حساب الألفاظ حتى تعرّى من أوصافها؛ وإنما يكون بهما معاً. «ومثال هذا كالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة»[206].

أما الإطناب فيكون في تطويل الكلام الذي يفيد معنىً إضافياً، وربما يقع في التكرار مما يجعل الألفاظ أكثر من المعاني، وبهذا يكون عكس الإيجاز «وهو – في أصل اللغة – مأخوذ من أطنب في الشيء إذا بالغ فيه». وحَدّه «زيادة اللفظ على المعنى لفائدة. فهذا حده الذي يميزه من التطويل؛ إذ التطويل زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة»[207].

وهكذا يكون التكرار إذا أفاد معنىً إضافياً ما فهو إطناب وإلاَّ فهو تطويل. ولذلك نرى أن تعريف البلاغة إنما هو إبلاغ المتكلم بعبارته كُنهَ مراده مع الإيجاز بلا خلل، وإطالة من غير إملال مما ينبغي أن يوجز فيه في مقام وفي موضوع لا يصح له إلاَّ الإيجاز، وإذا كان المقام والموضوع يطلبان الإطناب فلابدَّ منه؛ ولكل مقامه، ولهذا قيل: البلاغة «قليل يفهم، وكثير لا يُسأم»،

---

[205] انظر مثلاً: الصناعتين 195 والعمدة 250/1 و306، وتحرير التحبير 197 و 200 و457.
[206] انظر: المثل السائر 255/2 و341.
[207] انظر المثل السائر 343/2 -344 وانظر الصناعتين 209.

obeikandl.com

وروى المفضل تعريف البلاغة بأنها «الإيجاز من غير عجز، والإطناب من غير خطل»[208].

وأياً كانت تعاريف البلاغة عند النقاد والبلاغيين، واللغويين فغاية المتكلم إبلاغ المخاطب حاجته من الكلام بأسلوب دقيق يؤدي إلى إفهامه، فهي مرتبطة بالمقام والموضوع، ولكن العرب قديماً كانوا أميل إلى الإيجاز، فأبلغ «الكلام ما حسن إيجازه، وقل مجازه؛ وكثر إعجازه، وتناسبت صدوره وأعجازه»[209] وعُدَّ الإيجاز من أدب المرؤوس مع الرئيس، وهو «الإتيان بقليل اللفظ الدال على المقصد، حتى لا يكون فيه شُغل للرئيس بطول الكلام، وبَسط القول».[210]

وحينما نرجع إلى ابن المقفع ندرك أنه استعمل الإيجاز والإطناب كل في موضعه؛ فرسائله الاجتماعية إلى أصدقائه في حالة العزاء والتهنئة أو ما شاكلهما اعتمد فيها على الإيجاز. مع التقصير في الرسالة بينما (رسالة الصحابة) أو(اليتيمة) أو رسالته إلى (يحيى بن زياد) فهي من الرسائل المطولة في الحجم، والمعتمدة على الجملة المرسلة المتحدرة بيسر وسهولة، علماً بأنه يجمع بين مفهوم الإيجاز والإطناب على السواء من جهة الألفاظ والمعاني، وربما يميل إلى جهة الإطناب فيها لأنها مستندة إلى الشرح والتعليل لجملة من القضايا المطروحة في كل منها؛ كما نجده في رسالة الصحابة، ومنها «ومما يُذكّر به أمير المؤمنين، أمر الأرض والخراج؛ فإن أجسم ذلك وأعظمه خطراً، وأشده مُؤنة، وأقربه إلى الضّياع؛ ما بين سهله وجبله، ليس لها تفسير على الرساتيق والقرى؛ فليس للعمال أمر ينتهون إليه، ولا يحاسبون عليه؛ ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعدما يتأنّقون لها في العمارة؛ ويرجون لها فضل ما

---

208 انظر العمدة 242/1 والصناعتين 209 و 19-24.

209 العمدة 246/1

210 صبح الأعشى 278/8 وانظر الصناعتين 209.

obeikandl.com

تعمل أيديهم....»[211].

فنراه يعيد على سبيل الإرداف بعض المعاني، ومن ثم يبدي جملة من الآراء؛ ويشرح حالة المزارعين، ويحذر الخليفة من سوء صنيع العمال معهم، وهذا يعني أنه يعرض جملة من الحقائق والمعارف، ويحاجج عنها، ولاسيما حين يضع العلة قبل المعلول. فإنما يحتاج إلى أسلوب الإطناب ولكن هذا لا يمنعه من التوفيق بينه وبين أسلوب الإيجاز في الرسالة تبعاً للموضوع والمقام، ومثاله «فأما اختلاف الأحكام، فإما شيء مأثور عن السلف غير مجمع عليه، يدبره قوم على وجه؛ ويدبره آخرون على وجه آخر، فينظر فيه إلى أحق الفريقين بالتصديق وأشبه الأمرين بالعدل. وإما أجراه على القياس، فاختلف وانتشر بغلط في أصل المقايسة، وابتداء أمر على غير مثاله»[212].

فإقامة المعلول على العلة شديدة الوضوح في هذا المثال، وهو يعمد إلى أسلوب التقسيم والتفريع للشرح والتوضيح، ولكنه في آن معاً كان ملتزماً ببعض العبارات الموجزة التي ترك للمتلقي تدبرها؛ كقوله في المأثور عن السلف؛ وفي إجراء القياس فلم يشرح أياً من الأمرين.

ويبقى الإطناب في هذه الرسالة وما ذكرناه الأسلوب المفضل عنده؛ إذ يناسب مقام التفخيم في حالة المخاطب؛ ومقام الشرح والتعليل في بيان أسباب كل مسألة يعرض لها في الموضوع الذي يعالجه، وهو مقام يبتعد عن عبث المتكلمين وأهل الكلام.

أما الإطناب في كليلة ودمنة فله شأن آخر، فهو يأتي بمقتضى مفهوم السرد والقص في كثير من الأحيان، فضلاً عن الشرح والتوضيح والتعليل؛ وإن وقع هذا في بعض أقواله؛ كقوله: «ثلاثة لا آراء لهم؛ صاحب الخُفّ الضيق، وحاقن البول؛ وصاحب المرأة السليطة»[213].

---

211 جمهرة أشعار العرب 45/3

212 جمهرة أشعار العرب 40/3

213 بهجة المجالس 452/1 وانظر فيه 321.

فإذا جئنا إلى كتابي (الأدب الصغير والأدب الكبير) وجدناه يفضل الإيجاز على الإطناب، مما جعله حكمة مرصوفة بألفاظ رشيقة غزيرة المعاني، مشرقة العبارة[214] ساد فيها حلاوة الاستخدام بأسلوب طلبي يكثر فيه أسلوب النهي والأمر عادة، لكنه الأمر الذي يفيد الالتماس، دون أن يتخلى عن الجملة الخبرية.

ومن هنا فقد جمع في أسلوب الإيجاز جزالة العبارة الموحية بالمعاني الكثيرة. وهو أثر عربي خالص. وبين حلاوة أسلوب الطلب المثير للتساؤل والعقل؛ وهذا أثر فارسي خالص.

فابن المقفع كان يختصر ويوجز في عباراته، وهذا أبعده عن أسلوب الإرداف والإطناب والتكرار الذي عرفناه في رسالة التحميد وما ذكرناه قبل قليل.

ونرى في هذا المقام أنه استطاع أن يمزج بين نمطين من الحضارة الأدبية؛ حضارة أدبية عربية قديمة تفضل الإيجاز، وحضارة أدبية عربية معاصرة تفضل الإطناب بعد أن امتزجت بالثقافات الأخرى؛ وانتقلت من البادية إلى الحاضرة. فحين كان الأديب يختصر كلامه ويوجز فيه فإنما هدفه أن يحفظ الكلام، ومن هنا اعتمد الشعر القديم الوحدة الجزئية في البيت ليسهل حفظه وروايته، بينما أصبحت الحاجة ملحة للإطناب في الحاضرة لمعالجة جملة من شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولهذا لابدَّ من البسط في القول شرحاً وتحليلاً، فكان الإطناب؛ ونهض النثر ليقوم بهذه المهمة مما أدى إلى ازدهار الكتابة الفنية، وفي هذا السياق جاء كتاب كليلة ودمنة.

ولعل أسلوب الإطناب كان وراء ضَعف التصوير في رسائله المتنوعة، على حين ظل التصوير من خصائص (كليلة ودمنة) علماً بأن التصوير كان أحد أساليب النثر في صدر الإسلام، على سبيل المثال.

ولكي نستدل على ما قلناه في الأدب الصغير والكبير نقدم هذا المثال الجامع

---

[214] انظر ابن المقفع 238.

obeikandl.com

للحكمة والنصيحة البارعة، حيث يقول: «إذا هممتَ بخير فبادر هواك؛ لا يغلبك؛ وإذا هممت بشرّ فَسَوِّف هواك، لعلك تظفر. فإن ما مضى من الأيام والساعات على ذلك هو الغُنم، لا يمنعنك صغر شأن امرئ من اجتناء ما رأيت من رأيه صواباً»[215].

ويقول: «تجذر خصومة الأهل والولد والصديق والضعيف، واحتجّ عليهم بالحجج، لا يوقعنّك بلاء خلصت منه في آخر؛ لعلك لا تخلص منه. الوَرِع لا يُخدع، والأريب لا يُخدَع»[216]. وقوله: «أعلم أن المُلك ثلاثة: مُلك دِين، ومُلك حزم، وملك هوىً»، ثم يشرح ذلك ويعلله فيقول: «فأما ملك الدين فإنه إذا أقام للرعية دينهم؛ وكان دينهم هو الذي يعطيهم الذي لهم، ويلحق بهم الذي عليهم؛ أرضاهم ذلك؛ وأنزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم. وأما مُلك الحزم فإنه يقوم به الأمر ولا يسلم من الطعن والتسخّط. ولن يضر طعن الضعيف مع حزم القوي. وأما ملك الهوى فلِعبُ ساعة ودمار دهر»[217].

فهذا الكلام الموجه للسلطان على غاية من الدقة في الدلالة قام على أسلوب الإيجاز والإطناب وهو إطناب جاء من أسلوب التقسيم والإرداف.

أما ما يتعلق بالأمثلة من كليلة ودمنة، فإن أسلوب القص والترميز سيشمل على شيء منها وهو حديثنا التالي.

القصُّ والترميز:

الرمز لفظ كنائي موحٍ إيحاءً بعيداً بالمعنى الحقيقي بينما يوحي بمعنى آخر قريب، فالرمز قناع لفظي لمعنى لا نُريد التصريح به؛ ولعل الإشارة والتلميح يماثلان الرمز، لكنهما ليسا متطابقين معه على وجود التشابك في

---

215 الأدب الصغير 41-42.
216 الأدب الصغير 49.
217 الأدب الكبير 77.

obeikandl.com

هذا ،كما في قوله تعالى: (آيتك ألاَّ تكلم الناس ثلاثة أيام إلاَّ رمزاً) (آل عمران 41/3)، فالإشارة تكون باليد أو الوجه، أو العين، أو الحاجبين، فهو من اللغة باللفظ من غير إبانة، وبغيرها بما يكنّى عنه مما أشرنا إليه[218].

ومن هنا نجد أنَّ الترميز ليس غريباً عن العرب، استعملوه قديماً في الشعر كما وجدناه – مثلاً – في شعر لقيط بن يعمر الإيادي[219]، ثم جاء في القرآن الكريم، وكذلك كان لديهم أسلوب القصة الشعرية المكثفة الدلائل المستندة إلى الصورة الشعرية كما نجده في مشاهد الحيوان، والحكايات العجائبية، وغيرها في الشعر الجاهلي والإسلامي[220]؛ إذا تجاوزنا الإشارة إلى قصص الأمثال التي تُلخِّص بعبارة شديدة التكثيف حكاية وقعت لهذا أو ذاك كما هو المثل المشهور: لأمر ما جدع قصير أنفه[221]. ثم اعتمد القرآن مبدأ القص (القصص)، ثم وقع القص في كتب التاريخ والمغازي، ككتاب (المغازي) للواقدي، وفي كتب السيرة النبوية؛ كسيرة ابن اسحاق في سيرة المصطفى، وقد هذبها، وأعاد توثيق أشعارها ابن هشام (ت 204هـ) في كتابه المشهور (السيرة النبوية)، وكل هذه الكتب جاءت تالية لزمان ابن المقفع، وكذلك جاءت المقامات ورسائل إخوان الصفا المتأثرة بآثاره.

وهذا يعني أن كل باحث مُنصف للنثر القصصي يرى أن ابن المقفع أول من فتح أنظار العرب على القصة المكتوبة في كليلة ودمنة؛ وإن عرف بعض العرب أشكالاً من قصصها تناولتها الذاكرة الجماعية بعد أن ترجمت إلى اللغة السريانية للمرة الأولى؛ ثم ضاعت الترجمة إلى أن جاء ابن المقفع[222] فترجمها من جديد.

---

218 انظر اللسان (رمز)

219 انظر ديوان لقيط بن يعمر 38-39 والعمدة 302/1 و305 -308.

220 انظر مثلاً: ديوان النابغة 153 وديوان الشنفرى 59 وديوان تأبط شراً 77 و112 ق 18؛ و125 ق 21 و162 ق27... وانظر ابن المقفع 243.

221 انظر مجمع الأمثال 233/1 -237 (المثل رقم 1250) و196/2 (المثل رقم 3366).

222 انظر الأمثال في النثر العربي القديم 42-43 و84 و166-169 وابن المقفع 246 وقد رأى صاحبه أن حكاية (البوم والغربان) في كليلة ودمنة تذكرنا بقصة الزباء.

obeikandl.com

فالقَصُّ فعل القاص؛ وقَصَّ القصّة بينها أحسن بيان، لقوله تعالى: (نحن نقصُّ عليك أحسن القصص) (يوسف 3/12) والقَصُّ: الإخبار؛ لقوله تعالى: (فلما جاءه وقصَّ عليه القصص؛ قال لا تخف.....) (القصص 25/28).

وقصص الشيء إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيء؛ والقاص الذي يأتي بالقصة[223].

وأما القصة باعتبارها فناً أدبياً نثرياً فلم يعرفه العرب قديماً إلاَّ على يد ابن المقفع فهو «أول الذين فتحوا للناس بابها»، في كليلة ودمنة[224]، ثم جاء بعده أدباء ألّفوا في السير الشعبية كسيرة عنترة؛ وذات الهمة، ولكن هذا كله لا يتجه وفق مفهوم ما هو معروف في عصرنا؛ إذ كان للأوربيين فضل تطوير هذا الفن، بيد أننا حين نطبق عناصر هذا الفن وأسلوبه على ما قام به ابن المقفع في الكتاب المشار إليه فإنه يعدُّ بجدارة رائد هذا الاتجاه في الأدب العربي المنثور، وإن لم يرمِ إليه قصداً، ومن ثم لم ينظّر له إذ جاء عفوياً باعتبار ما بنيت عليه حكايات (كليلة ودمنة)، بيد أنه حقق جماليات فنية عالية في دقة اختيار ألفاظه وإنزالها منازلها من جودة النسج والقدرة على التصوير الموحي.

فابن المقفع أفاد من الأصل الهندي لحكايات هذا الكتاب: المبنية على القص والترميز في آن معاً؛ ثم حمّله همومه ومشكلات عصره الاجتماعية والسياسية، لذا تدخل في بناء كل قصة لتنسجم مع أهدافه؛ كما ظهر في المقدمة التي وضعها له، لهذا قيل: إن ابن المقفع كان يؤلف الكتاب من جديد وهو يترجمه. فعالم الحيوان، لديه – كان ينطق بأمور كثيرة لا يمكن للإنسان أن يبوح بها في إطار المواجهة مع السلطان أو غيره، ولهذا تبنى مستويين للسرد؛ مستوىً باطنياً ضمنياً يختزن أفعال الشخصيات ومواقفها؛ ومستوىً ظاهرياً تعبر عنه الأفعال باعتبار ما توحي به عن السارد الحقيقي،

---

223 انظر اللسان (قص).

224 انظر ابن المقفع 244.

obeikandi.com

ولكن ابن المقفع أشعرنا أنه خارج المسرود (المكتوب)، وكأنه خارج الزمن السردي.

وهنا تلزمنا الإشارة إلى أن أنسنة عالم الحيوان كانت معروفة منذ القديم؛ لاستنطاقه بما يحمله الكاتب من أفكار وأهداف، وهذا ما يجعله مشابهاً لحكايات تأبط شراً عن الغيلان؛ فما ظهرت في قصصه الشعرية إلاَّ لتؤكد تفرده[225]. وكذلك يشابه ما نجده في حكاية (الحية الصفراء) عند النابغة الذبياني؛ التي نطقت عنه بمصير الإنسان الطماع[226].

وقد لزمتنا هذه الإشارة؛ لكي ننبّه على أن بناء حكايات (كليلة ودمنة) تغاير في طرائقها وأساليبها ما عرف في الحكايات الخرافية العربية، لتقترب من الحكايات الرمزية الحديثة شرقاً وغرباً؛ ولاسيما ما يرتبط بالدور الرمزي للشخصيات، وبطرائق السرد والحوار، وبخاصة السرد الوصفي.

وربما كانت لغة القص والسرد معروفة في كتبه الأخرى التي تحدثت عن سير ملوك فارس مثل (خداي نامه) و(آيين نامه) و(التاج في سيرة أنو شروان) لكنها لا تماثل ما عرفناه في كليلة ودمنة كما يبدو مما نقل عنه ابن قتيبة في كتبه، مثل عيون الأخبار.

وإذا كنا لا نعلم بالضبط كيفية طرائق السرد القصصي في مثل تلك الكتب فإن من نقل عنها يوحي بأنها لا تخرج عما نعرفه اليوم بمفهوم القصص المعروفة في تراجم الشخصيات، ولا شيء أدل على هذا من أن ابن المقفع كان يجتمع إليه الناس في سوق (المِربد) من البصرة، ويرددون عليه ما كتبه[227] هذا إذا تغافلنا عن الفردوسي الذي بنى كتابه (الشاهنامه) أو (تاريخ ملوك فارس)

---

[225] انظر مثلاً: ديوان تأبط شراً 227 وراجع حاشية (221) وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي 174-175 الشعر الجاهلي 174-175.

[226] انظر ديوان النابغة الذبياني 153-154 ومجمع الأمثال 145/2 – 146 (المثل رقم 3046) وانظر الأمثال في النثر العربي القديم 42-43 ومشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية 292 – 293.

[227] انظر ابن المقفع 120 والسيرة النبوية لابن هشام 321/1 وكان النضر بن الحارث قد وفد إلى الحيرة وتعلم أخبار رستم وإسفنديار وغيرهما، ورجع إلى مكة وصار يحدث الناس بها ليصرفهم عن الدعوة الإسلامية، وراجع ما تقدم حاشية 49، 52 من الفصل الأول.

obeikandl.com

على منهج ابن المقفع في كتبه المشار إليها واستقى منها كثيراً عن أخباره وحكاياته: كما نظن[228].

وتبقى حكايات كليلة ودمنة متفردة في هذا الاتجاه، وتعد في النّمط الأعلى من الحكايات النثرية الخرافية العجائبية باعتبار أنها تستند إلى السرد الرمزي الوصفي والحواري المتنوع، بما يقع على لسان الشخصيات؛ سواء كان سرداً داخلياً أم سرداً خارجياً يجري بينها وهو المعتمد غالباً، فالشكل السردي يسير في خطين متوازيين متكاملين متناغمين ليتداخل الزمن السردي التاريخي والمعرفي والخطي بالسارد الداخلي.

بهذا كلّه استطاع ابن المقفع أن يمارس كتابة القصة بكل عناصرها الفنية المعروفة اليوم وإن لم ينظر لها، مما مَهّد الطريق لمن جاء بعده كالمعري مثلاً في قصة الغفران وكتاب القائف[229] فقد وفر لها عناصر الحدث والزمان والمكان والحوار والشخصيات؛ ثم عرضها بطريقة جذابة ومتسلسلة في البداية والوسط والنهاية.

وأي قصة من قصصه يمكن أن تكون مثالاً لذلك كله؛ دون أن يسهو عن طبيعة الحوار والسرد بما يناسب مستوى الشخصيات ثقافة ومنزلة؛ ويناسب الموضوع الذي يعالجه؛ ويتفق مع الوظيفة والغاية التي يرمي إليهما.

لهذا كانت كل حكاية موضوعة لهدف ووظيفة يغايران الحكاية الأخرى؛ سواء أكانت ذات هدف أخلاقي أم سياسي أم اجتماعي، وسواء أكانت الوظيفة تربوية أم نفسية أم خلقية أم سياسية، وهذا وفّر له التنوع في الموضوعات وفي طرائق التعبير، إذ كانت الجملة تطول أو تقصر تبعاً لذلك، ومن ثم كان القالب التعبيري يفرض بصورته المرسلة المباشرة، أم بصورته المرسلة الرمزية.

---

[228] انظر العصر العباسي الأول 511 ودراسات في الشاهنامة 27-41

[229] انظر ابن المقفع 242 وراجع حاشية 41 مما تقدم.

obeikandl.com

وهذا كلّه يفرض علينا أن نقدم شواهد تؤكد ما ذهبنا إليه؛ فمن شواهد السرد الذاتي الذي جاء بلسان الراوي قوله في مثل الرجل الهارب من الفيل: «فالتمست للإنسان مثلاً؛ فإذا مَثله مَثل رجل نجا من خوف فيلٍ هائج إلى بئر فتدلى فيها، وتعلّق بغصنين كانا على سمائها. فوقعت رجلاه على شيء في طي البئر. فإذا حيّات أربع قد أخرجت رؤوسهن من أحجارهن، ثم نظر فإذا في قعر البئر تنين فاتح فاه منتظر له ليقع فيأخذه، فرفع بصره إلى الغصنين فإذا في أصلهما جُرذان أسود وأبيض وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران.

فبينما هو في النظر لأمره والاهتمام لنفسه إذ بَصر قريباً منه بخليّة فيها عسل فذاق العسل فشغلته حلاوته وألهته لذته عن الفكرة في شيء من أمره، وأن يلتمس الخلاص لنفسه. ولم يذكر أن رجليه على حيّات أربع لا يدري متى يقع عليهن. ولم يذكر أن الجرذين دائبان في قطع الغصنين، ومتى انقطعا وقع على التنين. فلم يزل لاهياً غافلاً مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التنين فهلك.

فشبّهت بالبئر الدنيا المملوءة آفات وشروراً ومخافات وعاهات».[230]

إن كل فاحص لهذا النص السردي الوصفي الذي لجأ إليه الراوي كاتب القصة يدرك الهدف من لجوئه إلى هذه الطريقة... فهو يبغي أن يعرض فكرته والهدف منها دون أن يشوش عليها أي شيء... ولذلك قص هذه القصة المحكمة النسج، من البداية حتى النهاية... إنها أقصوصة متكاملة البناء. في عرف هذه الأيام. وهي تقوم على اللغة المرسلة التي تخلت عن السجع والازدواج، والتوازن والإيجاز، والتكرار والإرداف... واختارت الجملة المرسلة القائمة على أسلوب الإطناب، دون أن تقع في الإسفاف والضّعف...

وإذا كان الحوار الخارجي يطول عادة على لسان بعض الشخصيات لأنه يناسب الهدف من مفهوم تشخيص كل فكرة أو حالة وشرحها وبيان علتها

[230] كليلة ودمنة 46-47.

ليضع لها الدواء الناجح، فإن هذا الحوار الرشيق الدقيق الجذاب قد يقصر أيضاً كما نراه في هذا المقطع الحواري بين كليلة ودمنة: «قال كليلة: وما يدريك أن الأسد قد التبس عليه أمره؟! قال دمنة: بالحس والرأي أعلم ذلك منه؛ فإن الرجل ذا الرأي يعرف حال صاحبه، وباطنَ أمره بما يظهر له من دَلّه وشكله. قال كليلة: فكيف ترجو المنزلة عند الأسد، ولست بصاحب السلطان، ولا لك علم بخدمة السلاطين وآدابهم وآداب مجالسهم؟! قال دمنة: الرجل الشديد القوي لا ينوء به الحمل الثقيل وإن لم تكن عاداته الحمل؛ والرجل الضعيف لا يستقل به؛ وإن كان ذلك من صناعته»[231]

وكل من يتأمل هذا النص الحواري القصصي يدرك مدى الوضوح والترسل السلسل المترابط في جمله، والدال على معناه بشكل صريح... وهو يخالف النّص السابق له من جهة الترميز والاستعارة. وكلاهما يدلان على قوة التخيّل المبدع ودقة تعبيرهما، في الوقت الذي يبرزان مدى الملكة الإبداعية، والقدرة الذهنية التخيلية في جمع الصور المختزنة للوظائف النفسية والخلقية والفكرية.

فالرمز بكل مكوناته الاستعارية والكنائية، ومجازاته المرسلة خلق حيوية فعّاله لطريقة السرد في إطارها الزماني والمكاني والهدف الذي ترمي إليه؛ فأبعدها عن السأم والملل على الرغم من طول المقطع عنده،وهذا ما يمكن أن نراه في أمثاله، فابن المقفع خلق نوعاً مثيراً من الانزياح اللغوي والدلالي ليصل إلى ما يريد؛ باعتبار أن الرمز لديه إنما هو عملية انحراف في اللفظ لكي يصل إلى المعنى البعيد، وهو المقصود. وبهذا ينطبق عليه مفهوم تعريف الرمز بأحداث صوره عند مورييه فيقول: «هو شيء محسوس للدلالة على إحدى صفاته»[232]. وهذا يبعده عن التعمية والإلغاز، أو التلميح الشديد الخفاء، دون

---

[231] كليلة ودمنة 51 ، وانظر فيه 141- 143.

[232] الصورة الشعرية في الكتابة الفنية 182.

obeikandl.com

أن ننسى أن وضوح الرمز في حكاياته يتفاوت في درجاته بين واحدة وأخرى[233].

هكذا يظل في كليلة ودمنة علماً فرداً في أسلوب القص والترميز، لم يستطع من جاء بعده من العرب أن «يتقدموا بالقصة نفسها – مع الأسف – إلى أبعد من الحد الذي وصل إليه»[234].

ومن هنا أعاد المحدثون النظر فيها فتركت آثارها واضحة في خيالهم القصصي والفني؛ ودفعت مخيلتهم إلى تجسيد حكاياتها بصور طريفة ورسوم تصطبغ بالألوان والأشكال والأحجام؛ مثلما اصطبغت قصص كليلة ودمنة. فالأديب اللبناني (أحمد حسن طبارة) أظهر خمساً وثمانين لوحة فنية لخيالات حيواناتها، واستعان فيها – غالباً – بالأديب المصري مصطفى لطفي المنفلوطي[235].

وقبل أن ننتقل إلى أسلوب التضمين نشير إلى أن لغة السرد والحوار قد وقعت في كتابيه (الأدب الصغير والأدب الكبير)؛ ولكنها جاءت بمقتضى الوظيفة والدلالة والغاية؛ ولم يكن ابن المقفع يقصد إليها من جهة البناء القصصي... ويستدل على هذا بقوله: «قال رجل لحكيم: ما خَيّر ما يؤتى المرء؟ قال: غريزة عقل. قال: فإن لم يكن؟ قال: فتعَلُّم علمٍ. قال: فإن حُرمَه؟ قال: صدق اللِّسان. قال: فإن حرمه؟! قال سكوت طويل. قال: فإنَّ حرمه؟! قال: ميتة عاجلة»[236]

فهو يريد أن يقدم عدداً من الحكم، فساقها على سبيل القصة الحوارية، وقد تكون من بعض محفوظه، وهي تدل على تظرف؛ لكنه تظرف لا يدخله في باب الزندقة؛ كما ذهب إليه بعض الباحثين، مؤيداً رأيه بشهرة الزنادقة بالتظرف[237]. وكان ابن المقفع ظريفاً، كما يرويه البيهقي في قصة واقعية

---

233 انظر مثلاً: كليلة ودمنة 149 ففي ترجمته ورموزه شيء من الغموض.
234 ابن المقفع 243.
235 انظر دراسات في الأدب المقارن 183 – 184.
236 الأدب الصغير 55 وانظر مثلاً آخر في الأدب الكبير 92.
237 انظر ابن المقفع 58.

obeikandl.com

وقعت للرجل، قيل فيها: «أتى رجلٌ ابن المقفع في حاجة فلم يصل إليها، وكان مستثقلاً له؛ فكتب بيتاً في رقعة وأرسل به إليه:

هل لذي حاجة إليك سبيل وقليل تَلبُّثي لا كثير

فوقّع عليه:

أنت يا صاحب الكتاب ثقيل وقليلٌ من الثقيل كثيرُ

فأجابه الرجل:

قد بدأتَ الجواب منكَ أنت بالفحش والبذاء جدير

فضحك وقضى حاجته»[238].

فالسرد القصصي ولاسيما الحوار الخارجي يختلف في هذه الحكاية الواقعية عما نجده في كتبه الأخرى كالأدب الصغير الذي أشرنا إلى بعض أمثلة منه... فالحوار جاء مكتوباً، شائقاً وجذاباً ودلّ على نمط من التوقيعات الشعرية التي استحدثت بعد صدور الإسلام...

وكذلك روى الجاحظ قصة أخرى رواها عن ابن المقفع قال: «روى أصحابنا عن عبد الله بن المقفع قال: كان ابن حُذام الشّبي يجلس إليَّ، وكان ربما انصرف معي إلى المنزل، فيتغدى معنا ويقيم إلى أن يُبرد. وكنت أعرفه بشدة البخل، وكثرة المال. فألح علي في الاستزارة، وصمّمتُ عليه في الامتناع. فقال: جعلت فداك أنت تظن أني ممن يتكلّف، وأنت تشفق علي؟! لا والله؛ إن هي إلاَّ كُسَيرات يابسة، وملح، وماء الحَبّ. فظننت أنه يريد اختلابي بتهوين الأمر عليه، وقلت: إنَّ هذا كقول الرجل: يا غلام؛ أطعمنا كِسرة، وأطعم السائل خمس تمرات. ومعناه أضعاف ما وقع اللفظ عليه. وما أظن أحداً يدعو مثلي إلى الخُرَيبة من الباطنة، ثم يأتيه بكِسرات وملح.

فلما صرت عنده، وقَرّبه إليَّ؛ إذ وقف سائل بالباب فقال: أطعمونا مما تأكلون؛ أطعمكم الله من طعام الجنة. قال: بورك فيك. فأعاد الكلام،

[238] المحاسن والمساوئ 589.

obeikandl.com

فأعاد عليه مثل ذلك القول. فأعاد عليه السائل؛ فقال: اذهب. ويلك – فقد ردوا عليك. فقال السائل: سبحان اللّه! ما رأيت كاليوم أحداً يُرد من لقمة؛ والطعام بين يديه. قال: اذهب؛ ويلك، وإلاّ خرجت إليك – واللّه – فدققت ساقيك. قال السائل: سبحان اللّه!! ينهى اللّه أن يُنْهر السائل؛ وأنت تدق ساقيه؟!! فقلت للسائل: اذهب وأرح نفسك؛ فإنك لو تعرف من صدق وعيده مثل الذي أعرف، لما وقفت طرفة عين، بعد رده إيّاك»[239].

لا مرية في أنَّ هذا النص يدل على مهارة ابن المقفع في السرد القصصي، والإيماءة بقدرة عجيبة إلى العديد من الآيات القرآنية التي ضمّنها إياه، في الوقت الذي يدل على سخائه وكرمه وتواضعه في معاشرة هذا البخيل. وقاك اللّه شرَّ مثله.

ومن ثمَّ فإنَّ فطنته وظرفه هما اللذان قدما النّصيحة لذلك السائل بأنه لن يلقى أحسن مما لقيه هو في استزارة هذا البخيل؛ فقد صدق ما وعده به إذ قدّم له فقط كُسيرات وملحاً وماء الحَبّ،فلو عرف السائل صدق هذا البخيل مع ابن المقفع لما وقف في الباب طرفة عين.

فالقصة تشرح نفسها؛ لكنني آثرت إبراز ملامحها لنتساءل كيف استقام للدكتور حمزة أن يجعلها هي وسابقتها دليلاً على زندقة ابن المقفع؟![240]

بقي علينا أن نشير إلى أن الحوار في هذه القصة يخالف ما وجدناه في كليلة ودمنة من جهة الترسل الاستعاري؛ ويوافق ما وقع له في الأدب الصغير والكبير من شدة الإيجاز والوفاء بالمعنى دون زيادة أو نقصان، وقد استعمل فيها أسلوب السارد الذاتي الذي يروي ما وقع له، وهذا يوافق أحدث ما تبنى عليه القصة اليوم؛ وربما وقع هذا الأسلوب في الأدب الصغير كقوله: «سمعت العلماء قالوا...»[241]، فهو يعتمد على حكاية خبر ما ليقدم العديد من الحِكَم

---

239 البخلاء 121.

240 انظر ابن المقفع 58.

241 الأدب الصغير 62 وانظر فيه 65.

obeikandl.com

الرشيقة المرصوصة الموجزة العبارة المليئة بالوعظ والإرشاد.

ونختم بمقالة للدكتور شوقي ضيف، وإن اتهمه بالزندقة؛ «ويظهر أنه على الرغم من زندقته كان يبهره جمال القرآن وصياغاته؛ فاستعار من ألفاظه وأساليبه كثيراً من جوانب كتاباته حتى في القصص الحيواني؛ قصص كليلة ودمنة»[242]، ومن هنا ننتقل إلى أسلوب التضمين.

أسلوب التضمين:

الاقتباس داخل في التضمين عند القدماء؛ وعند ابن المقفع.. فالتضمين أن يجعل المتكلم في «كلامه كلمة من بيت أو من آية، أو معنىً مجرداً من كلام أو مثلاً سائراً أو جملة مفيدة أو فقرة من حكمة»[243]، ثم يدمج ذلك في أساليبه حتى يصبح جزءاً منها دون أن ينص على نوع الكلام المدرج فيها، أو يعنى بنسبته إلى قائله عناية مطلقة. وأطلق عليه ابن الأثير التضمين الحسن؛ إذ يكتسب به الكلام طلاوة وطعماً خاصاً لا نحس به من دونه، أما التضمين المعيب عند بعض القوم فهو تعليق بيت من الشعر في بيت آخر يليه معنىً ولفظاً، على حين أنه غير معيب عنده[244].

وكأن القدماء قد لحظوا في هذه المسألة قدرة المبدع على التصرف الدقيق والعالي في كل ما أخذه من كلام الآخرين، وعلى حسن توظيفه له في سياق كلامه، مما يدل على مخزون ثقافي عالٍ؛ وتمكن من أساليب العربية من دون أن يتهم صاحبه بالسرقة.

ولعل هذا جعلهم يُضربون عن الاقتباس الذي يصرح بنسبة الكلام المأخوذ من صاحبه ومكانه لفظاً ومعنىً، ويوضع بين إشارتين تبرزان ذلك خشية الاتهام

---

242 العصر العباسي الأول 523.

243 تحرير التحبير 140

244 انظر المثل السائر 3/200-201.

obeikandl.com

بالسرقة وخشية التحريف والتغيير، فالأمانة تقتضي عدم التصرف في أقوال الآخر.

ولا يساورنا شك في أن الاقتباس يدل على ثقافة الكاتب، ولكنه يقيده بقيد التنصيص والنسبة؛ وإن لم يحسن استخدامه سقط في مهاوي الضّعف والركاكة، مما يجعله أكثر تعقيداً في الكتابة من التضمين.

وفي ضوء ما تقدم وجدنا أن التضمين وحده المعمول به عند القدماء؛ وهو يحتاج من القارئ إلى معارف واسعة وشاملة لكي يقبض عليه لديهم؛ ولاسيما إذا كان شفيفاً وغير مباشر، ويبدو لنا أن ابن المقفع قد استطاع استخدام أسلوب التضمين ببراعة فائقة في الأدب الكبير والأدب الصغير خاصة، فقد قيل: إنَّهما حكم مستمدة من القدماء؛ ومن يتفحص أساليبه فيهما يوقن بأنهما من عنده. وهو لم ينظر ذلك لكنه صاغها بشكل فني طريف يناسب العربية؛ وهي داخلة في صميم كتابه الذي أبدعه بمهارته فيقول: «وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عون عن عمارة القلوب وصقالها، وتجلية أبصارها...»[245].

فابن المقفع أدرج كلام الناس في كلامه وقلَّ أن صرح بنسبته كما نراه في قوله: «سمعت العلماء قالوا: لا عقل كالتدبير، ولا وَرَعَ كالكفّ، ولا حسب كحسن الخلق»[246]. وربما أوحى في أماكن أخرى أنه مأخوذ من الآخرين، ولم يُسمّ أحداً منهم؛ كقوله: «وكان يقال، الرجال أربعة: اثنان تَختَبر ما عندهما بالتجربة، واثنان قد كُفيت تجربتهما»[247]. وكنا قد كشفنا عن أمثال هذا التضمين للحديث الشريف والقرآن الكريم في كتابيه[248] مما يؤكد قدرته الفائقة على التصرف في الكلام دون أن يظهر عليه، بعكس

---

[245] الأدب الصغير 20.

[246] الأدب الصغير 62 وانظر فيه 55 والأدب الكبير 108...

[247] الأدب الصغير 48؛ وربما أوحى بمفهوم السرد والحوار دون أن يصرح به، انظر مثلاً: في الأدب الصغير 45 و 47 – 49 و58.

[248] راجع أرقام الحواشي التالية ومضمونها مما تقدم 78- 83 و87 -90 و104 – 108.

obeikandl.com

(كليلة ودمنة) المنسوب صراحة لواضعه الفيلسوف الهندي (بَيْد با) وصنعه لملك الهند (دَبْشَليم)[249].

ويبدو لنا أن أسلوب التضمين في رسائله أكثر وضوحاً مما تبيناه في (الأدب الصغير والكبير)، ونقع فيها على آيات قرآنية بلفظها ومعناها، كما نقع على بعض الشواهد الشعرية التي خلا منها كتاباه السابقان، فإذا تركنا التحميد الذي يكثر فيه تضمين القرآن فإننا نقف عند ختام (رسالة اليتيمة) وفيه يقول: «فمن كان سائلاً عن حق أمير المؤمنين في معدنه فإن أعظم حقوق الناس منزلة، وأكرمها نسبةً، وأولاها بالفضل حقُّ رسول الله (ص) نبي الرحمة؛ وإمام الهدى؛ ووارث الكتاب والنبوّة؛ والمهيمن عليهما، وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بعثه الله بشيراً ونذيراً؛ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً؛ ثم هو باعثه يوم القيامة مقاماً محموداً؛ شرع الله به دينه، وأتمَّ به نوره على عهده، ومحق رؤوس الضلالة؛ وجبابرة الكفر وخوله الشفاعة؛ وجعله في الرفيق الأعلى (ص)»[250].

فهذا النص مملوء بتضمين الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة؛ وكل كلمة فيه يمكن إرجاعها إلى موضعها منهما، كقوله تعالى: (وإنَّه لهدى ورحمة للمؤمنين)(الأحزاب 40/23) وقوله سبحانه: (إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) (الأحزاب 33/ 45 ❖ - 46) ومثل هذا نجده فيما وصل إلينا من (الدرة اليتيمة) سواء ما أثبته الحصري منها في الحسد والحساد أم ما أثبته الثعالبي في ذكر السلطان[251].

وكل من يتلطف برؤية آثاره وما نثره فيها من حكم ونصائح ووصايا لأيقن أن قامة القرآن الكريم واضحة في ألفاظه وأساليبه[252] مما يثبت لكل ذي نظر

---

249 انظر مقدمة كليلة ودمنة 7.

250 جمهرة رسائل العرب 52/3.

251 انظر ما قاله الثعالبي في كتابه (ثمار القلوب 199 -200) عن الدرة اليتيمة، ومن ثم أثبت قطعة منها، تضمنت العديد من الآيات القرآنية، وانظر قطعة أخرى منها في زهر الآداب 246/1 تتبع الأسلوب نفسه.

252 انظر: مثالاً آخر في الأدب الصغير 42 وجمهرة رسائل العرب 58/3.

obeikandl.com

أن تضمين صور الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة على الوجه المشار إليه إنما يبرئه من تهمة الزندقة، وإن كان كثير من أساليبه قد تأثر بكلام حكماء الفرس وضمنها في كتبه، وهو تيار لا يمتّ إلى الزندقة بصلة بل يدل على حيوية ابن المقفع وفاعليتها في التضمين، إذ استطاع عقله الحر الوقّاد أن يستوعب القديم والجديد، بما فيه الشعر العربي القديم، فالشعر نادر الاستعمال لديه في أسلوب التضمين لكنه ورد في بعض رسائله فقط؛ كما نجده في رسالة الصحابة؛ فضلاً عن تضمينه للآيات القرآنية والأدعية الإسلامية؛ فهو يخاطب أمير المؤمنين داعياً له: «أكرمك اللّه أما يصير العدل كله إلى تقوى اللّه عزَّ وجلَّ وإنزال الأمور منازلها؟! فإنَّ الأول قال:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سـراة إذا جُـهـالـهم سادوا

وقال:

هم سَـوّدوا نصراً؛ وكـلّ قـبيلة يُبيِّن عن أحلامها مَنْ يَسودها

وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيب؛ ودخلت فيه مظالم»[253].

فإذا تغافلنا عن عبارته (قال الأول، وقال) التي تدل على تمييزه الشديد لزمانية القول ومعرفته بأنه جاهلي قديم للشاعر الأفوه الأودي فإنه يدل في آن معاً على دقة اختياره لشعر تضمن الكثير من الحكم والمواعظ؛ وهو ما حرص عليه في أدبه. فقد كان مولعاً بالحكمة، مما جعله مشغوفاً بالأمثال قديمها وحديثها، وهو القائل: «إذا جعل الكلام مثلاً كان ذلك أوضح للمنطق وأبين في المعنى، وآنق للسمع وأوسع لشُعوب الحديث»[254].

فأفضل الأمثال أوجزها، وأحكمها، وأصدقها، وفي (كليلة ودمنة) عدد منها نقلها من جاء بعده؛ كالماوردي، كقوله: «طالب الدنيا كشارب ماء

[253] جمهرة رسائل العرب 43/3 وانظر فيه 62.
[254] الادب الصغير 32.

obeikandl.com

البحر كلما ازداد شراباً ازداد عطشاً»[255]. وسرد العديد من أمثاله؛ مثل: «ينبغي للعاقل أن يكون عارفاً بزمانه حافظاً للسانه؛ مقبلاً على شأنه، وألاَّ يرى إلاَّ في ثلاث: تزودٍ لمعادٍ أو قربة؛ أو لذة في غير مُحرّم»[256]. وهو مُحَرَّف الألفاظ عما جاء في الأدب الصغير، وما ورد في قوله: «الوَرِعُ لا يُخدع؛ والأريب لا يُخدع»[257] و«لا يستخف ذو العقل بأحد»[258].

ومما ورد في الأدب الكبير؛ قوله: «اعلم أن لسانك مصلتة»[259] وهذا يشبه المثل الذي أخذه الناس عن امرئ القيس «جرح اللسان كجرح اليد»[260]، وقوله: «اعلم أن الجبن مقتلة؛ وأن الحرص محرمة». وهو مثل أخذه الجاحظ وابن قتيبة[261]. وكذلك وقعت الأمثال والحكم في رسائله؛ منها: «فإنَّ أهل الفضل في اللُبّ؛ والوفاء في الود؛ والكرم في الخلق»[262].

وقد عُرفت العرب منذ القديم بالحكم والأمثال، ونطقت بها على السليقة، ثم ألفت فيها الكتب قبل ابن المقفع، كما في كتاب الأمثال لعُبَيد بن شرية الجرهمي (ت 70 هـ) وهو في خمسين ورقة كما رآه ابن النديم[263] ولكن ابن المقفع لم يؤلف في الأمثال كتباً، بل أبدع الأمثال واخترعها، وضمّن كتاباته أمثالاً للعرب وغيرهم دلّت على عبقرية فذّة؛ وعبرت عن ثقافة عصره ومجتمعه من جهة الوظيفة والدلالة والهدف. وكلنا يحفظ المثل الذي نطق به الثور الأحمر لمّا حانت منيته على يد الأسد: «دعني أنادي ثلاثاً. فقال: افعل. فنادى: ألا إني أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض». وربما شاعت هذه الحكاية بين

---

255 الأمثال والحكم 122 وانظر البيان والتبيين 174/3 و 367، والصناعتين 165- 267 و 470 وبهجة المجالس 410/1 و452 و472.

256 الأمثال والحكم 155 وانظر القول في الأدب الصغير 27 وهو في حاشية 171 مما تقدم.

257 الأدب الصغير 49.

258 الأدب الصغير 52.

259 الأدب الكبير 129.

260 المستقصى في أمثال العرب 50/2 (مثل رقم 187) وانظر مجمع الأمثال 53/1. وفيه مثل مشابه.

261 الأدب الكبير 129 وراجع حاشية 169 مما تقدم.

262 جمهرة رسائل العرب 61/3.

263 (فارغة في الأصل)

obeikandl.com

العرب قبل ابن المقفع ؛ كما يحكيه لنا الميداني على لسان أمير المؤمنين (علي) حين قُتل (عثمان) رضي الله عنهما جميعاً فقال علي (ع) بعد أن روى قصة الأثوار الثلاثة: «ألا إنّي هُنْتُ يوم قُتِلَ عُثمان»[264].

فإذا صح ما رواه الميداني فإن العرب الآراميين عرفوا كتاب (كليلة ودمنة) المنقول إلى السريانية سنة (570م) ثم حفظته الذاكرة الشعبية حتى صدر الإسلام[265] وقد عرض عابدين لأمثال كليلة ودمنة بأشكالها الثلاثة؛ الشكل (الموجز والقياسي والخرافي)[266].

وإذا كان المثل قد حقق لابن المقفع فكرة التضمين أسلوباً ومعنىً؛ فإنّه وفر له قطعاً أدبية رفيعة المستوى؛ باعتبارها جواهر منظومة في عقد ثمين، مما أضفى على أسلوبه صفات الرونق والبهاء والإيجاز، فضلاً عما تشتمل عليه من النغمة التأديبية الخلقية المشبعة بالمبادئ والقيم التي تنظم جوانب الحياة كلها.

وقد دلت الأمثال والحكم الواردة في كتاباته على أنها نتاج مشترك للشعوب الشرقية الممثلة بأبناء فارس وللشعوب العربية على السواء مما يجعلها تتصف بخصائص مشتركة في التفكير والعادات والقيم، سواء منها ما ورد على لسان الإنسان أم على لسان الحيوان[267].

هكذا ينتهي بنا الطواف في حديقة ابن المقفع النثرية التي امتلأت بالأزهار والأوراد والأشجار الطيبة الثمر، فدلت على أنه لم يكن أديباً مرهف الحس، بليغ اللسان، فحسب «بل كان أكبر بلغاء عصره؛ إذ استطاع أن يملأ أواني العربية بمادة أجنبية غزيرة، دون أن يحدث فيها انحرافاً من شأنه أن يجر ضرباً من الازدواج اللغوي؛ إذ من المعروف أنَّ لكل لغة صياغتها وأنماطها الخاصة في التعبير، ولها أيضاً صورها وأخيلتها التي قد تستعصي على الأداء

---

264 انظر حكاية الثيران الثلاثة مع المثل: (أكلت يوم أكل الثور الأبيض) في مجمع الأمثال 25/1 (رقم 81).

265 انظر الأمثال في النثر العربي القديم 84 و 166.

266 المرجع السابق 269 وما بعدها، ففيه تفصيل لا صلة له بدراستنا على أهميته.

267 المرجع السابق 133 و44 أو ما بعدها و 170.

obeikandl.com

في لغة أخرى. وشيء من ذلك لا يصادفنا عند ابن المقفع؛ فقد استطاع أن يحتفظ للعربية في ترجماته بمقوماتها الأصلية، كما استطاع الملاءمة بين الأخيلة والصور الفارسية وذوق اللغة العربية؛ بحيث لا نحس نُبُوّاً ولا انحرافاً، مما يشهد له بقدرته البيانية؛ وأنه استطاع أن يحوز لنفسه السليقة العربية التامة بكل شاراتها وسماتها اللغوية»[268].

«ومن الخطأ البيّن أن يقال: إنَّه كان أحد المستشرقين يتعثر في أساليبه وتضطرب لغته، فقد كانت اللغة العربية تستقيم له؛ وكان أعجوبة زمانه في البيان والبلاغة مع الجزالة والنصاعة حيناً، وحيناً آخر مع العذوبة والرشاقة»[269].

وما الذي يتبقى لنا للقول بعد كلام الدكتور شوقي ضيف؛ لم يبق لنا إلاَّ أن نقول ما قاله أحمد أمين: إنه «نتاج ثقافة فارسية عميقة واسعة لَقِحت بعدُ بلقاح عربي؛ فكان من هذا أدبٌ جَمٌّ، مدين في أكثر معانيه للفرس؛ وفي أكثر ألفاظه وأساليبه للعربية»[270].

ولم يبق لنا إلاَّ أن نردد مع ابن المقفع مقولته: «فإنَّ الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنمى إلاَّ بالموافقين والمؤيدين. وليس لذي الفضل قريب ولا حميم أقرب إليه ممن وافقه على صالح الخصال فزاده وثبّته»[271].

وكما كنا نود أن يكون شعره الذي نطق به بمستوى نثره؛ ولكن الكمال لله وحده.. مما يحدونا لكي نتعرف إلى صورته الشعرية؛ فإذا كنا قد عرفناه ناثراً مبدعاً فكيف يظهر شاعراً؟

---

[268] العصر العباسي الأول 522.
[269] العصر العباسي الأول 526.
[270] ضحى الإسلام1 /195 .
[271] الأدب الصغير 25.

obeikandl.com

ابن المقفع شاعراً:

حدود وأبعاد:

ليس من مهمتنا في هذه الدراسة أن نتعقب كل ما قاله ابن المقفع من شعر ولا أن نوثقه؛ وإن حدث أحياناً شيء من التوثيق؛ ولكننا نريد أن نثبت بأنه لم يكن كاتباً بليغاً، وخطيباً مفوهاً فحسب، بل كان يصوغ الشعر في بعض الحالات والمواقف؛ وإن لم يكن يرضى عنه كله[272]. وهو يعترف بأنه ليس شاعراً فحلاً خنذيذاً؛ لا يشق له غبار؛ إذ سئل مرة عن ذلك فقال: «الذي أرضاه لا يجيئني والذي يجيئني لا أرضاه»[273]. فقد كان «محجماً عن قول الشعر»، على الرغم من أنَّه «من حكماء زمانه، وله مصنفات كثيرة ورسائل مختارة»[274]. فهو كما قال: «المسن يسن الحديد ولا يقطع»[275]. لذا رأى الجاحظ أنه على الرغم من فصاحة عبد الحميد الكاتب، وابن المقفع «وبلاغة أقلامهما وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلاَّ ما لا يذكر مثله»[276].

فالأول استخرج أمثلة الكتابة ورسمها لمن بعده؛ والثاني طار بالكتابة الفنية النثرية مسافات كبيرة، إذ ارتقى في أساليب وجوه استعمال المعاني قبل وجوه الألفاظ والتراكيب، ولعل الكلام الذي قاله البحتري في محمد بن عبد الملك الزيات ينطبق على ابن المقفع قبل غيره؛ ومنه:[277]

قد تصرَّفْتَ في الكتابة حتى ... عطّل الناس فنّ عبد الحميد

في نظامٍ من البلاغة ما شـ ... ـك امرؤ أنه نظام فريد

ولكنهما على شهرتهما بالكتابة وصناعتها في دواوين الدولة لم يحسنا قول

---

272 انظر زهر الآداب 244/1 وبهجة المجالس 96/1 وتاريخ الأدب العربي – بروكلمان – 101/3.
273 البيان والتبيين 210/1 وانظر فيه 208 وراجع حاشية 53 من الفصل الأول.
274 زهر الآداب 244/1.
275 انظر محاضرات الأدباء 93/1.
276 البيان والتبيين 210/3.
277 العقد الفريد 203/4. والبيتان في الديوان 354/1 (دار الكتاب العربي).

obeikandl.com

الشعر.

ويبدو لنا أن ابن المقفع قد رأى السكوت والاستماع والإشارة والوحي بلاغة فلما كان الكلام قاصراً وغير مفيد وغير ناجع، صار السكوت بلاغة على المجاز في الإيجاز[278]. وهو أحرى الناس بالابتعاد عن الشعر إن لم يكن ملبياً لآماله، وهذا نمط جديد من البلاغة والحكمة أولى بكثير منها أن يطبقها، فلو ابتعد كل منّا عمّا لا يحسنه لصار بليغاً وحكيماً، فابن المقفع الخطيب والكاتب العظيم الذي شرب من الخطب رياً، ومن البيان رحيقاً رقراقاً لا يقنعه أن يكون في الشعر إلاَّ في المنزلة التي يرغب فيها؛ لأنه أخذ نفسه بالكمال، وبالمثال الأرحب مروءة وخلقاً وكتابة، وكيف يقول شعراً دون شعر بشار بن برد؛ وحماد عجرد، ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد، وهو يستمع إليهم وإلى أمثالهم كلما اجتمع بهم، ويقول الجاحظ: إنهم كانوا؛ «يجتمعون على الشرب وقول الشعر، ويهجو بعضهم بعضاً...»[279].

ومن المرجح أنه لا يُدْخِل في الهجاء ابن المقفع ؛ لأنه لم يُشهَد له في حياته أن تهاجى مع هؤلاء أو غيرهم، بينما اشتهر التهاجي بين بشار وحمّاد عجرد، ثم إن مروءته وأخلاقه ودينه نأى به بعيداً عن ذلك كله؛ فضلاً عن أنه يدرك تمام الإدراك أن شعره لم يكن بمستوى أشعارهم كما تؤكده الأشعار التي صحّت له ووصلت إلينا؛ على الرغم من جودة أبيات منها اختارها أبو تمام في حماسته وتأثر بها من جاء بعده، كقوله من رثاء العبد الكريم بن أبي العوجاء:

فقد جَرَّ نفعاً فقدنا لك أننا أمِنّا على كل الرزايا من الجَزَعْ

فأخذه منه شاعر آخر وزاد فيه إبداعاً آخر؛ فقال:[280]

وقد عزَّى ربيعةَ أنَّ يوماً عليها مثلَ يومِك لا يَعود

فابن المقفع نطق بالشعر – وإن لم يرضَ عن شعره – ورواه وضمّن في كلامه

---

278 انظر البيان والتبيين 115/1 والصناعتين 23.

279 انظر أمالي المرتضى 131/1.

280 انظر الخبر كاملاً في (المثل السائر 237/3)

أشعار الآخرين ولاسيما تلك الأبيات المقلَّدة، الذائعة، المختزنة بالحكمة، واستشهد بها في بعض مواقفه، وكأن عزوفه عن قول الشعر يفسر ما قاله مرة – وقد أنشد بيتاً للقطامي – وقوله هو؛ «الحاجة يعتري صاحبها الخيفة من مكانين: الاستقبال بها قبل وقتها؛ والثاني حتى تفوت؛ وأنشد:[281]

وقد يفوت أناساً بعض ما طلبوا عند التأني فكان الحزم لو عجلوا

وكلنا قد حفظ البيتين اللذين ذهب الأدباء إلى أنه أنشدهما حين مَرَّ ببيت نار للمجوس، رامزاً بهما إلى حنينه للمانوية؛ وحمّلوه بذلك وزراً عظيماً، والبيتان من شعر الأحوص، وهما:[282]

يا بيتَ عاتكةَ الذي أَتَعَزّلُ حَذِرَ العِدا؛ وبه الفؤاد مُوَكّلُ

أصبحت أمنحُكِ الصدودَ وإنّني قسماً إليكِ؛ مع الصدود لأَمْيَلُ

وسبق أن تبينا في أسلوب التضمين أنَّه ضمّن رسائله الإخوانية والرسمية أبياتاً مُقَلَّدة من الشعر؛ كما فعل في رسالته إلى يحيى بن زياد الحارثي؛ والبيت هو:[283]

ومَنْ يُنازِعُ سعيدَ الخيرَ في حَسَبٍ يَنزعْ طليحاً ويُقْصِر قيدَهُ الصّعَدُ

وقد يتساءل المرء: لماذا تقدم بما ليس من شعره؛ وأنت تريد شعره؟!... ويأتي رجع الجواب من صميم ثقافة ابن المقفع العربية التي تؤكد حذقه باللغة العربية وحفظه لأشعارها، والإفادة منها في مواضعها؛ مثلما كان يفعل بالثقافة الفارسية، فكان في هذا يقف من جديد بين هاتين الحضارتين، ولعل عظمة تأثره بالعربية؛ وشغفه بها جعله يتقنها كأهلها؛ إن لم يكن أكثر، ثم يقول الشعر فيها.

ومن هنا سوف نثبت بعض ما قاله من شعر، تبعاً للترتيب الهجائي ، مثبتين أن

---

[281] انظر الخبر كاملاً في (بهجة المجالس 321/1).

[282] انظر الخبر كاملاً في (أمالي المرتضى 134/1)، وراجع الحواشي (29-31)، من الفصل الثالث وشعر الأحوص الأنصاري 166.

[283] جمهرة رسائل العرب 62/3 وانظر فيه 43.

obeikandl.com

بروكلمان ذكر في تاريخه أنَّ لابن المقفع قصيد مطول في الشهور المسيحية؛ نشرت مع ترجمة ألمانية[284] لم نطلع عليها.

من أ شعاره:

أثبت له الجاحظ في (البيان والتبيين 364/2) قوله في النصيحة: (المتقارب)

فلا تلمِ المرءَ في شأنه فربَّ ملوم لم يذنب

وهذا مستمد من قول الأحنف بن قيس: رب ملوم لا ذنب له.

وروى له الشريف المرتضى في (أماليه 134/1) ينصح بكلام مليء بالحكمة فيقول: (الرجز).

قد سلم الساكت الصموتُ كلام راعي الكلام قوتُ

لا تفش سراً إلى جدار فَرُبَّمَا نَمَّتِ الْبُيُوتُ

واعجباً لامرئٍ ضحُوكٍ مستيقنٍ أنَّه يموتُ

ووقّع على كتاب بعث به إليه رجل ثقيل يمازحه كما روى البيهقي في (المحاسن والمساوئ 589) فقال: (الخفيف)

أنت يا صاحب الكتاب ثقيل وقليلٌ من الثقيل كثير

ونسب إليه قوله في تحليل شرب النبيذ على مذهب فقه بعض العراقيين: [285] (الوافر)

سأشربُ ما شَرِبْتُ على طَعَامِي ثلاثاً ثمَّ أتْرُكُهُ صحيحا

فلستُ بقارفٍ منه أثاماً ولستُ براكبٍ منه قبيحا

وروى الجهشياري في (الوزراء والكتّاب 103) أنه قال لمّا أمر سفيان بن معاوية بقتله: «والله إنك لتقتلني؛فتقتل بقتلي ألف نفس؛ ولو قتل مئة مثلك ما وفوا بواحد؛ ثم قال[مفتخراً بنفسه وساخراً بخصمه» (الوافر)

إذا ما مات مثلي مات شخصٌ يموتُ بموتِهِ خَلْقٌ كثيرٌ

---

[284] انظر تاريخ الأدب العربي – بروكلمان – 101/3.

[285] انظر امراء البيان 102 وراجع حاشية 29 من الفصل الأول.

obeikandi.com

وأنت تموتُ وحدَكَ ليس يدري بموتك لا الصغير ولا الكبيرُ

وقد صدق ابن المقفع فيما ذهب إليه فالكاتب المبدع يظل في نفوس الناس، وكلما مات منهم واحد زاد عدد الموتى الذين يعرفونه، بينما ظل الوالي فرداً....[286]

وروى أبو تمام رثاء لابن المقفع في حماسته (شرح المرزوقي 2/863 -865، حماسية رقم 282)[287] (الطويل)

رزئنا أبا عمروٍ ولا حَيَّ مِثْلَهُ فلله ريب الحادثاتِ بِمَنْ وَقَعْ
فإن تكُ قد فارقتنا وتركتنا ذوي خَلَّةٍ ما في انسداد لها طَمع
لقد جرَّ نَفْعَاً فَقْدُنا لك أننا أمِنّا على كل الرزايا من الجَزَعْ

وذهب أبو تمام إلى أن هذا الرثاء قاله في يحيى بن زياد الحارثي؛ ثم اتبعه في هذا الرأي أحمد بن يحيى ثعلب (200 - 291 هـ / 816 - 914) كما رواه المرتضى في أماليه؛ وفيه ذهب ثعلب إلى أن «البيت الأخير يدل على مذهبهم [أي الزنادقة من المجوس] في أن الخير ممزوج بالشر، والشر ممزوج بالخير»[288].

وقد رأى بروكلمان الرأي نفسه في المرثي الذي توجه إليه ابن المقفع بالرثاء[289].

ونستبعد ما قاله الأخفش في أن المرثية في رثاء عبد الكريم بن أبي العوجاء؛ وكان المنصور قد قتله لأنَّه دس أحاديث مكذوبة على رسول اللّه (ص)؛ ولا هي في رثاء يحيى بن زياد الحارثي الذي مات في خلافة المهدي نحو سنة (160 هـ/776م)، وقد حزن عليه مطيع بن إياس حزناً شديداً ورثاه كثيراً[290].

---

[286] انظر امراء البيان 109 و ابن المقفع 63- وراجع حاشية 86 من الفصل الأول.
[287] انظر أمالي المرتضى 135/1 فالأبيات فيه مطابقة لرواية أبي تمام، وانظر امراء البيان 91.
[288] أمالي المرتضى 135/1 .
[289] تاريخ الادب العربي 101/3.
[290] انظر أمالي المرتضى 143/1 -144 والأعلام 145/8.

obeikandi.com

ويرى ابن خلكان أن الرثاء مشهور في أبي عمرو بن العلاء (زَبّان ابن عمار التميمي المازني البصري) (70 -154هـ/690 -771م)، مما يدعو تصحيح نسبته لولد عبد الله بن المقفع، وهو محمد بن عبد الله؛ لأن عبد الله قتل سنة (142هـ)، على حين أن وفاة أبي عمرو كانت (154هـ) فكيف يرثي الميت حيًّا؟[291]، ولعل نسبة الأبيات إلى ولد ابن المقفع في رثاء أبي عمرو أصح الآراء.

فعقول الرجال توافت على ألسنتها – كما قال أبو عمرو بن العلاء[292] في جواب له على سؤال اتفاق الشارعين على لفظ واحد ومعنى، ونحن قد عقدنا معاً صلة الموافاة ببيان قدرة ابن المقفع على قول الشعر في موضوعات شتى وأوزان متعددة، مما يشهد له بأنَّ العربية صارت سليقة لديه، وهذا ينطبق عليه ما قاله بنفسه: «لا يخفى فضل ذي العلم؛ وإن أخفاه»، كالمسك يخبى ويستر، ثم لا يمتنع ذلك رائحته أن تفوح».[293]

ونختم القول أيضاً بمقولة له: «أصل العقل التثبت وثمرته السلامة؛ وأصل الورع القناعة وثمرته الظفر، وأصل التوفيق العمل، وثمرته النُّجْحُ»[294].

فنحن صحبنا رجلاً اتصف بالمروءة والأخلاق الفاضلة؛ والعقل والورع؛ جدَّ في عمله وثبت كالطود، ووقف مع الحق ولم تلن عزيمته، وكشف مفاسد شتى؛ شخصها وحللها ووضع الدواء الناجع للتخلص من شررها، وكانت المجالات الاجتماعية الأخلاقية؛ والسياسية الإدارية أعظم ما تتوخاه مراميه في الإصلاح ابتداء من إصلاح الفرد وانتهاء بالدولة، مما جعله حكيماً واعظاً ما يملُّ من الوعظ والإرشاد والنصح والتوجيه، وقد ظهرت أفكاره الإصلاحية ذات اتجاه عقلي منطقي شديدة الدقة والوضوح.

وحين كان يمارس دعوته إلى الإصلاح كان يمارس حياته، ويغشى مجالس

---

[291] انظر وفيات الأعيان 152/2 والأعلام 41/3 وتاريخ آداب اللغة العربية 405/1.
[292] انظر الصناعتين 249.
[293] الصناعتين 266.
[294] الأدب الصغير 51.

obeikandl.com

الصفاء؛ ولكننا لم نشهد له في صحبتنا معه لا في حياته ولا في أدبه تحريماً للطيبات التي أحلّها الله لعباده؛ فلا هو بالزاهد فيها، ولا هو بالمتهتك الفاجر في طلبها، ولم تستطع أن تفتنه عن الآخرة والعمل لها، كان يخشى ربه، ويحرص على التقوى؛ ويؤدي الفرائض.

كان المثال الأرحب للإنسان الصالح، في الوقت الذي صار آية عظيمة في البلاغة والكتابة الفنية حين ارتقى بأساليب النثر العربي، وأدخل فيه طرائق بديعة لم يعرفها، فدل على عبقرية فذة في مرحلة صعبة، اكتنفتها فتن كبيرة وأحداث عظيمة.

ولكنه استطاع بأدبه الرفيع الذي اتصف بالصيغ الجمالية العالية؛ وسلوكه الأخلاقي النبيل أن يظل في نفوسنا جبلاً شامخاً، لا يؤثر فيه ما يسقط عليه من الشهب اللاهبة المحترقة، فسرعان ما تتلاشى، فهل استطعنا – حقاً – أن نرتقي إلى شفافية ما قاله، وسعى إليه بقوة لتصبح حضارة أمتنا حضارة إنسانية؟!

وأخيراً...

أقترض عبارة منه لأقول: «إذا عثر الكريم لم ينتعش إلاَّ بكريم، كالفيل إذا توحّل لم يقلعه إلاَّ الفيلة»[295].

وأنت وحدك – عزيزي القارئ – من يقبل عذر الكرام؛ مردداً قوله تعالى: (ربنا افتح بيننا وبين القوم بالحق وأنت خير الفاتحين) (الأعراف 89/7)، وما عسانا إلاّ أن نثبت في نهاية هذا الفصل أهم نتائج الدراسة، لنستقر عند فهرس المصادر والمراجع والمحتوى.

❖❖❖

[295] انظر الصناعتين 267 .

obeikandl.com

أهم نتائج الدراسة

تنوعت الدراسات التي تناولت حياة ابن المقفع وفكره وعقيدته وأدبه؛ ولكنها لم تتكامل – فيما أرى – إذ طغى جانب على آخر. فقسم منها ركز في الجانب الفكري الفلسفيّ؛ وقسم آخر اتجه إلى الجانب الروحي العقيدي، والإصلاحي الاجتماعي، وقسم ثالث صبَّ همّه في نثره قبل أي شيء آخر... ولم ينظر إلى شعره..

ولهذا تعد هذه الدراسة قراءة فكرية نقدية وأدبية شاملة لجميع ما يتعلق بشخصية ابن المقفع فكراً وصفات وعقيدة، وسلوكاً، وإنتاجاً؛ مما فرض عليها التمسك بالمفاصل الأساسية في حياته وآثاره وأدبه، دون أن تهمل المفاصل الثانوية.

فقد انتهت الدراسة إلى أن الهوية الإسلامية أخذت تشكل نقطة التقاء ومزج حضاري في مطلع العصر العباسي؛ ولاسيما حين اتجه هذا المزج اتجاهاً ثقافياً وفكرياً فاكتسب حيوية وقدرة على الارتقاء في الحياة والفكر والفلسفة والأدب والفن.

وفي صميم هذا المسار كانت الثقافة الفارسية تدخل في الثقافة العربية لتشكل نسيجاً جديداً في إطار الجوهر الإسلامي وتعاليمه السمحة... إذ كان أبناء فارس، أكثر الشعوب قبولاً للإسلام على إصرار عدد منهم على التمسك بالعقائد القديمة لأجداده.

وكان ابن المقفع في زمن البدايات هذه يراقب ويستشعر كل ما يجري من أحداث في تحول الخلافة من بني أمية إلى بني العباس؛ ويرى الأثر الذي يتركه في النفوس... وأدرك أن الحرية ليست كاملة؛ فهي بعيدة عن السياسة ومراكز الحكم، وملتصقة بغيرهما؛ فالحرية متاحة وحيوية في الجوانب

الفكرية والاجتماعية، بل الدينية نفسها، وشديدة الفعالية فيها.

لهذا كله بدأ تفكيره بإعادة كتابة تاريخ جديد للبشرية، ووضع مشروعه التاريخي الفكري الإصلاحي في هذا الاتجاه ظناً منه أنه يستطيع أن يصلح السلطان قبل الرعية؛ وإذا صلح الرأس صلح الجسد، دون أن يهمل إصلاح الرعية، فبدأ بترجمة الكتب الفارسية لأنَّه لا يتقن إلاَّ لغتها؛ وبدأ بكتاب (خداينمك) ولم يكن قد أسلم؛ ثم أتبعه – كما نعتقد – بكتاب (آيين نامه) حتى انتهى سنة (133هـ/750م) إلى ترجمة كتاب (كليلة ودمنة) وكان قد أسلم سنة (132 هـ) ومن ثم لم يعرف بعد هذا التاريخ أن ترجم كتاباً واحداً؛ وإنَّما اتجه بعده إلى التأليف، فكانت رسائله والأدب الصغير والكبير.

فإذا تذكرنا أنَّ (كليلة ودمنة) ذو أصل هندي؛ وإذا صدق ما قيل عن بعض الكتب اليونانية التي ترجمها، وإذا تأملنا بإمعان ما تركه من آثار ولم نتغافل عن طموحاته الشخصية المشروعة، تأكد لنا أنه أول رائد حقيقي فاعل في عملية المزج الثقافي الحضاري بين أبناء الأمة الإسلامية، إذ كانت مؤلفاته، ومن قبلُ ترجماته؛ بدافع ذاتي إصلاحي أخلاقي. ولما أ سلم طواعية دون أن يكرهه على الإسلام والٍ أو خليفة؛ صديق أو عدو؛ قريب أو بعيد، مهما كان مركزه فإنه اعتقد أن صلاح الحاضر لا يكون إلاَّ بِعِبَر الماضي، لهذا جعل التراث للمرة الأولى أداة فعل وتغيير على الصعيد السياسي والاجتماعي والأخلاقي، ثم صيَّر قلمه جسر اتّصال متفاعل بين حضارتين قديمة زائلة وجديدة ناهضة.

ولما كان يعيش في زمن يختلط فيه الوهم بالعقل، والخرافة بالحقيقة، والحقد والحسد بالمنافسة الشريفة أخذت أصابع الاتهام تتجه إليه، وتوصمه بالزندقة... بدأت أكذوبة، ثم أُلحقت به لأن من أَضَلَّه اللّه جعل كتبه التاريخية سبيله... ولما اجتمع مع بعض المستهترين صَدَّق الناس بأنه لم يَحسُن إسلامه؛ ثم روَّج بعضهم عليه تهمة الزندقة؛إما بدافع شخصي وإما بدافع

مذهبي، أو سياسي، وهو بريءٌ منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب، إذ لم يخطر يوماً بباله أن يدعو إلى الاعتقاد بإلهين.

إنه صاحب مشروع ثقافي تاريخي قام على ماهو في تراث فارس؛ واشتمل فيما يشتمل عليه التاريخ من عقائد صحيحة أو فاسدة؛ وناقل الكفر ليس بكافر؛ والمؤرخ مؤتمن، وهو غير مسؤول عمن ضلَّ وأضلَّ غيره... لانحراف في عقله ونفسه.

ثم إنه صاحب مشروع حضاري أصله ترجمة المعارف المتنوعة سواء أكانت هندية أم يونانية أم فارسية، فكان أول من ترجم في ملَّة الإسلام، فسبق إلى رسم تقاليد التفاعل الحضاري بين أبناء الأمة، وحينما أصبح مصلحاً أخلاقياً واجتماعياً بامتياز كان عقله الفذ، ورهافة حسه المتوقد؛ وذوقه السليم الدقيق يسلمه إلى كتابه أفكاره بلغة عربية شغف بها وأتقنها وخلَّف فيها كتاباته كلها فلم يعرف عنه أنه كتب بلغة غيرها، وعلى الرغم من صغر سنه فإنه أثبت فيها قدماً راسخة؛ وقامة شامخة؛ دلت على عبقرية نادرة، فهو لم يقتصر على تجاوز عبد الحميد بن يحيى الكاتب أستاذه ومعاصره، بل راد حقولاً معرفية جديدة، وجدّد بأساليب للعربية لم يعرفها عبد الحميد.

فلما حمل هموم الأمة الإسلامية بين جوانحه كالحجر الملتهب اتجه إلى إصلاح ما وقع فيها من مظالم ومفاسد اتجاهين؛ الأول إلى السلطان، ويتجسد بموضوعات العدل والمساواة والتخلص مما علق بنظام الحكم من أوضار... و الثاني إلى الرعية؛وتمثل بموضوع خلقي يستند إلى الحرية والصدق والعلم الجاد والإخلاص، وكلا الاتجاهين لابد أن يقف أصحابه على مفهوم الاستشارة والعمل المنظّم؛ ومفهوم محاسبة النفس.

وإذا كانت الحكمة والنصيحة أساس مادة النثر فإنه قسم فنونه تقسيماً جديداً؛ فتح فيه الباب أمام الكتب المتخصصة بالموضوعات المتنوعة؛ إذ لم يؤلف أحد قبله كتاباً في موضوع نثري عدا معاصره يونس الكاتب. ثم كان

أول من جعل الترجمة همَّاً عاماً يفيد المجتمع منه بما تحويه كنوز الآخرين من معارف... فقدم حقولاً معرفية في هذا الباب لم يسبقه إليها أحد... كموضوع المرأة والانتفاع بحسن الاستماع؛ والصداقة؛ والعمل المنظم المرتب..

بهذا استطاع أن يحوز مكانته العظيمة في النثر العربي والإسلامي قديماً وحديثاً؛ نقل منه الكثيرون، وحذا حذوه كتّاب عديدون يقلدونه ويتعلمون على يديه، وفي آنٍ واحد معاً أثبت ريادة عالمية، ومكانة متميزة لدى الإنسانية حين أهداها كتابه (كليلة ودمنة) وبقية مؤلفاته... فرحلت في الزمان والمكان ، واطمأنت عند الشاعر الفرنسي لافونتين الذي كتب نحو عشرين حكاية مستلهمة من كليلة ودمنة، وإن قدّمها هو الآخر بلغة فرنسية حيوية ومؤثرة...

ثم حطت آثار ابن المقفع من جديد رحلتها في الأرض العربية لتزهر على يدي محمد عثمان جلال حكايات للأطفال؛(ولتثمر عند أحمد شوقي وتنتج أكثر من خمسين حكاية شعرية جمعت بينها وبين حكايات (لافونتين).

وبهذا حاز مكانة أدبية مرموقة لدى القدماء والمحدثين، أعداءً ومناصرين، اتفقوا على تفرده في الكتابة الفنية التي أزهرت على يدي عبد الحميد وأثمرت على يديه؛ سواء في الموضوعات أم في الأساليب... وكان في أساليبه يمزج بين الأساليب العربية وبين الأساليب الفارسية، وفق ما يقتضيه العصر... فنخل أساليب اللغة والبلاغة، فغيّر فيها ما لا يتوافق وذوق العصر وثقافته، ورقق مهذباً لأساليب أخرى؛ وتمسك بما يراه جديراً بالبقاء...

فابن المقفع تمسك بالإيجاز، لكنه أخذ يميل إلى الإطناب... و إن كان يرى أن البلاغة فيهما تقتضي مناسبة الموضوع والحال... لأن الإطناب يتفق مع الجملة المرسلة القائمة على تعالق جمل قصيرة... وهذا أثر فارسي خالص... على حين احتفظ بصورة الجملة العربية القائمة على التوازن والتقسيم... والتفريع والتتبيع الذي حل محل السجع والازدواج... وتمسك بالدقة والتلاؤم بين المعاني والألفاظ،

obeikandl.com

وبين المعاني والمقام الذي تصلح له... لهذا ابتعد عن وحشي الكلام، وتقعره فآثر الوضُوح والسهولة على غيرهما..

حتى اتهم بالضَّعف والركاكة... لكنه استطاع أن يجدد مفاهيم البلاغة في هذا الشأن، وأن تغدو الرقة والعذوبة في الألفاظ وتلاحم الأجزاء في النظم مع الاحتفاظ ببهاء الرونق...أصولاً في البلاغة... وكذلك ورثها من جاء بعده كالجاحظ وابن قتيبة وغيرهما، ثم أرسلوها عبارات قاعدية استقرت في أذهان الناس على أنَّها من صنعهم؛ بينما هي مستقاة من ابن المقفع .

وإذا كان قد حذا حذو أستاذه عبد الحميد في أسلوب التحميد والإرداف؛ ثم أسلوب التضمين... فإنه لم يجعل التضمين في اتجاه واحد، وإذا كان يستمد معارف كثيرة من الأمم كلها ويضمن في كتاباته الحكم والأمثال والأشعار... والآيات القرآنية والأحاديث الشريفة دون أن يظهر عليه أثر التضمين... إذ كان شديد التداخل في أسلوبه القائم على ترسل متتابع؛ متسلسل ومترابط؛ يشرح ويفصل، ويبرهن ويعلل... دون إطناب ممل أو إيجاز مخل... فكان على غاية من الدقة في دلالته والتلاؤم مع سياقه ومعانيه...

ثم استطاع بجدارة أني كون أول من فتح أسلوب القص والترميز في النثر العربي القديم؛ وإن عرف العرب نوعاً من الترميز في أشعارهم القائمة على الكناية والتورية منذ العصر الجاهلي، أو نمطاً من الحكايات الخرافية العجائبية في إطار مشهد الحيوان، والغيلان والسعالي...

ولعل من أهم ما يسجل له أيضاً أنه اعتمد أسلوباً جديداً في الكتابة قائماً على حسن التصرف في أساليب بلاغية متعددة.. فكثّف عدداً من الأساليب في سياق أسلوب بلاغي واحد... تتعاون فيما بينها لإبراز الفكرة التي يريد إيصالها إلى الناس.

وبهذا كله استطاع أن ينقل أساليب العربية من دوائر معينة إلى دوائر أكثر رحابة حين مزج مزجاً حضارياً فاعلاً بين الثقافة العربية والثقافة الفارسية؛

obeikandl.com

وفي طليعتها اللغة؛ فاللغة وسيلة وغاية؛ وهي وعاء المشاعر والأفكار... وبها تكمن حيوية التفاعل الحضاري بين الناس.

هكذا كان عقله الفذ، وذكاؤه الحاد، ورهافة حسه، وسلامة ذوقه المطبوع على الصحة والدقة... وراء رغبته الطموح في تحقيق الكمال في صفة الكتابة، بعد أن حقق المثال الأرحب في صفة المروءة والأخلاق الفاضلة... التي قربته من درجة أهل الصلاح والتقوى... وإن لم يبلغها حين عاشر بعض المجان والمستهترين؛ بناء على شروط الصداقة التي تبناها... وأهمها الحرية والعقل واحترام الآخر؛ أياً كانت طبيعته عقيدته، أو نوعها.

وعلى الرغم من استحقاقه رأس البلاغة والبلغاء العشرة؛ وما نقل عنه من تعريفات عديدة للبلاغة فإنه لم يرغب في قول الشعر وإن نطق بأبيات منه في بعض الحالات... وعلة هذا فيما حكاه هو في أنه يبتغي فيه أن يصل إلى حالة الرضى عنه... ولم يرض عقله عنه يوماً... وهذه صبغة من طغى عنده العقل على العاطفة... والعقل أليق بالنثر؛ بينما العاطفة المتأججة أليق بالشعر... لهذا كلّه أبدع في النثر وأخترع معاني جديدة فيه، وراد أساليب بلاغية ولغوية وفنية جعلته أحد عباقرة النثر العربي القديم، بل كلّه... لكننا نقرّ بأنَّه شاعر، فضلاً عن أنه خطيب وناثر، وقدَّمت الدراسة شيئاً من شعره للمرة الأولى في تاريخ الدراسات المرتبطة به... ونحن نتضرع إلى الله كي تكتمل مادته الشعرية لنشرها.

تلك هي صورة ابن المقفع الشاب الطموح المتقن لصنعة الكتابة؛ هذا الإتقان هو الذي جعله يدفع حياته ثمناً له... لكنه ظل على مدى التاريخ عملاقاً في مهنة الكتابة وهو يقوم بأعظم فعل حضاري في حياة الأمة التي آمن بها إيماناً لا يشوبه شك، إيمان الرجل المسلم المخلص لكل قيمها ومبادئها... لهذا حمَّلَ همَّه الكلمة الناصحة التي يملكها، وجعلها مادة صهر حقيقي لثقافة قديمة تستمد منها الأمة العربية والإسلامية الناهضة كثيراً من الدروس والعِبَر،

obeikandl.com

ليحقق فيها قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (آل عمران 110/3). (وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين) (يونس 10/10).

❖❖❖

obeikandl.com